الفصل الخامس

اطوار الدرس البلاغي وإتجاهاته

أطوار الدرس البلاغى :-

دراسة تاريخ العلم مفيدة فى الوقوف على تطوره من خلال أعلامه البارزين وأعمالهم الكبيرة التى تعد معالم على طريق العلم. وعلوم البلاغة ثلاثة علوم هى: المعانى والبيان والبديع هذا القول انتهى إليه شراح وملخصو مفتاح العلوم للسكاكى وعلى أيديهم اتصفت البلاغة بالجمود والشكلية.

لا مفر إذن من إحياء الدرس البلاغى باستكشاف الدراسات المفيدة عبر تاريخه الطويل ومن خلال الأعلام الكبار والمعالم الخالدة فى هذا الدرس.

لقد قمنا بدراسة مستأنية عن كتاب البيان والتبيين للجاحظ مخطوطة بمكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية نؤرخ فيها نشأة درس الأدب فى بيئة الرواة، فارجع إليها وضمها إلى ما كتبناه عن أبى عبيدة معمر بن المثنى وكتابه مجاز القرآن، وستجد أن أبا عبيدة حدثنا عن أشياء غابت عن الدرس البلاغى فى صورته الحاليه ونحن أحوج ما نكون إلى إضافتها للدرس البلاغى ونعنى اهتمامه بحروف المعانى.

ثم نحدثك عن دور الجاحظ فى تأصيل الدرس البلاغى بوضع أسسه، واخترنا أثرين خطيرين له هما باب البيان، وصحيفة بشر، وهما من النصوص البلاغية المفيده التى حواها كتابه البيان والتبيين.

وقد ارتضينا مقوله الدكتور طه حسين فى البحث القيم الذى ألقاه أمام أحد مؤتمرات المستشرقين بالفرنسية وعنوانه (البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر) وترجمه الأستاذ عبد الحميد العبادى وجعله كالمقدمه لأثر نشره باسم (نقد النثر) ونسبه لقدامه بن جعفر ثم ظهر الأثر كاملا باسم (البرهان فى وجوه البيان) لأبى الحسن إسحاق بن إبراهيم بن وهب.

مقوله الدكتور طه حسين فى بحثه تبرز دور الجاحظ ودور عبد القاهر الجرجانى فى الدرس البلاغى وتعتبرهما قائدين لهذا الدرس. ونحن نوافقه ونثبت مبلغ صحة ما ذهب إليه وندرسه تحت عنوان (اتجاهات البلاغة بعد الجاحظ وقبل عبد القاهر). لقد أرجعنا إلى الجاحظ ظهور هذه المدارس البلاغية فى الفترة من سنه ٢٥٥هـ إلى سنه ٤٥٠هـ تقريبا ثم انطلقت متأثرة بعبد القاهر الجرجانى، وهى:

١ - مدرسة الاختيارات الأدبية. ٢ - ابن المعتز ومدرسة البديع.

٣ - مدرسة إعجاز القرآن.

٤ - والمدرسة التنويريه، وهذه المدرسة غالت فى تقدير دور الثقافة الوافدة، ونقد دورها محوج إلى الاحتكام إلى معايير الجاحظ بالنسبة للعلاقة بين الثقافة الوافدة والثقافة الأصلية.

أما دور عبد القاهر الجرجانى فنرجئ الحديث عنه إلى الدراسات التفصيليه لعلوم البلاغة فى الفرق الثانيه (علم البديع)، والثالثة (علم البيان)، والرابعة (علم المعانى).

وحسبنا فى هـذا المدخل إلى الدرس البلاغى أن نعرفك بالرجال، والأعمال، والمدارس، والقضايا فى الدرس البلاغى.

أولا : بواكير الدرس البلاغى

أبو عبيدة معمر بن المثنى وكتابه مجاز القرآن :

أبو عبيدة (١٠٨ - ٢١٤هـ) متهم بالشعوبية عند بعض المتقدمين وبعض المتأخرين أيضا. قيل إنه كان متعصبا على العرب، وعندنا إنه مؤلف محايد، ودليلنا على حياده أنه ألف فى مثالب العرب كما ألف فى مناقبهم، وأنه كان خارجيا صفريا، وهذا يعنى أن شعوبيته كانت على الأصل فى التسميه، أى التسوية بين الشعوب، ولو كانت شعوبيته فارسية تهدف إلى الحط من شأن العرب لكان مذهبه واحدا من مذاهب غلاة الشيعة. إن تحديد موقف أبى عبيده من هذه القضية مفيد فى تقدير آرائه البلاغية، فهو لم يصدر فى آرائه عن تعصب على العرب، وإنما صدر عن حياد علمى.

وأبو عبيدة نحوى سلك مسلكا آخر فى درس العربية يتجاوز الإعراب إلى غيره من القواعد العربية، حاول أن يبين ما فى الجملة العربية من تقديم أو تأخير أو حذف أو غيرها، وكان بابا من النحو جديرا أن يفتح. و(المجاز لكلمة النحو عنده ما كانت إلا مناظرة نحو، أى سبيل العربى فى القول. وقد اقتصر النحاة على مايمس آخر الكلمة أما

هو فسمى بحثه المجاز، أى طريق التعبير، وتناول غير الإعراب من قوانين العبارة العربية، ولم يكثر ما أكثر سيبويه وجماعته، ولم يتعمق ما تعمقوا، ولا أحاط إحاطتهم، ولكنه دل على سبيل تبصرة انصرف لناس عنها غافلين).[١]

قال أبو عبيدة : إن السبب فى تأليفه كتابه ما كان من استقدام القضل ابن الربيع له، وسؤاله فى مجلسه عن وقوع الإيعاد بما لم يعرف مثله فى قوله تعالى: (طلعها كأنه رؤوس الشياطين)(الصافات ٦٥)فقال أبو عبيدة: «إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم. أما سمعت قول امرئ القيس:

أتقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال»

وقد نسب ابن النديم فى (الفهرست) لأبى عبيدة كتب مجاز القرآن، وغريب القرآن، ومعانى القرآن، وإعراب القرآن. وليس هناك لأبى عبيدة غير كتاب مجاز القرآن. أما هذه الأسماء فقد أخذت من الموضوعات التى تناولها المجاز، فهو يتكلم فى معانى القرآن، ويفسر غريبه، وفى أثناء هذا يعرض لإعرابه، ويستعمل فى تفسيره للآيات هذه الكلمات: مجازه كذا، وتفسيره كذا، ومعناه كذا، وغريبه كذا، وتقديره كذا، وتأويله كذا. على أن معانيها واحدة أو تكاد.

وجعل أبو عبيدة الصفحات من (٨ - ١٩) تحقيق الدكتور فؤاد سزجين كالمقدمة للكتاب، وهى تعالج ما فى القرآن الكريم من وجوه بلاغية استهلها بقوله : «القرآن اسم كتاب الله خاصة، ولا يسمى به شىء من سائر الكتب غيره، وإنما سمى قرآنا لأنه يجمع السور فيضمها،

وتفسير ذلك فى آية من القرآن، قال الله جل ثناؤه: (إن علينا جمعه وقرآنه)(القيامة١٧)مجازه: تأليف بعضه إلى بعض، ثم قال: (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه)(القيامة١٨). مجازه فإذا ألفنا منه شيئا فضممناه فخذ به، واعمل به، وضمه إليك.»

والفكرة الأساسية التى أدار كتابه عليها عبر عنها بقوله : (قالوا: إنما أنزل القرآن بلسان عربى مبين، وتصداق ذلك فى آيه النحل ١٠٣ من القرآن؛وفى آية أخرى (ومأأرسلنا من رسول إلابلسان قومه)(ابرهيم ٤)فلم يحتج السلف ولا الذين أدركوا وحيه إلى النبى صلى الله عليه وسلم أن يسألوا عن معانيه، لأنهم كانوا عرب الألسن فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه، وعما فيه من كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص وفى القرآن مثل ما فى الكلام العربى من وجوه الإعراب ومن الغريب والمعانى.)

لقد كـان أبو عبيدة أمينا حين لم ينسب هذا الكلام إلى نفسه؛ لأن دروس شيخيه أبى عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب كانت تدور حول هذه الفكرة، بل إن معاصره الإمام محمد بن إدريس الشافعى قد شرح هذه الفكرة ودلل على صحتها فى رسالته فى أصول الفقه.وأخطر ما فى قول أبى عبيدة إن الجيل المعاصر كان أقل من سلافه بصراً بالعربيه لامتزاج الأجناس، والبعد عن البادية فانتشر اللحن وظهرت الحاجة إلى تفهم طرائق العرب فى التعبير.

لقد عددنا أبـا عبيدة من شيوخ الجاحظ وترجمنا له وكتبنا عن آثار أبى عبيدة فى الجاحظ فى دراستنا المخطوطة عن كتاب البيان والتبيين للجاحظ، فارجع إليها بمكتبة كلية الآداب إن أردت.

شواهد من (مجاز القرآن) :

* من مجاز ما خبر عن اثنين مشتركين، أو عن أكثر من ذلك فجعل الخبر لبعض دون بعض، وكفى عن خبر الباقى، قال«الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله.»(التوبة٣٤).

* ومن مجاز ما جعل فى هذا الباب الخبر للأول منهما أو منهم، قال: (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها.)(الجمعة ١١).

* ومن مجاز ما حذف وفيه مضمر، قال: (واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها)(يوسف٨٢) مجازه واسأل أهل القرية ومن فى العير.

* ومن مجاز ماجاءت مخاطبته مخاطبة الغائب ومعناه للشاهد، قال :(ألم ذلك الكتاب)(البقرة٢،١) مجازه ألم هذا القرآن.

* ومن مجاز المكرر للتوكيد، قال (رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين)(يوسف٤)أعاد الرؤية، وقال: (أولى لك فأولى) أعاد اللفظ.

* ومن مجاز الأدوات اللواتى لهن معان فى مواضع شتى، فتجىء لأداة منهن فى بعض تلك المواضع لبعض تلك المعانى، قال: (..أن يضرب مثلا

ما بعوضة فما فوقها)(البقرة٢٦) معـــناه فما دونها. وقال: (والأرض بعد ذلك دحاها)(النازعات٣٠) معـناه مـــع ذلك، وقال: (لأصلبنكم فى جذوع النخل) (طه٧١) معناه على جذوع النخل، وقال : (إذا اكتالوا على الناس يستوفون)(المطففين٢)معناه من الناس.

واختتم أبو عبيدة هذه المقدمة بقوله: «نزل القرآن بلسان عربى مبين، فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول، ومن زعم أن (طه) بالنبطية فقد أكبر، وإن لم يعلم ما هو، فهو افتتاح كلام، وهو اسم للسورة وشعار لها. وقد يوافق اللفظ اللفظ ويقاربه ومعناهما واحد، وأحدهما بالعربية والآخر بالفارسية أو غيرها.

تدرك من هذا العرض أن أبا عبيدة خاض فى غير مبحث من علوم العربية، فمن علوم اللغة تعرض لوجوه إعراب النص القرآنى وللتفرقة بين العربى والدخيل، ولصيغ الصرف والجموع والمترادفات، ولغات القبائل. كما خاض فى مبحث الدلالة. كما تنبه إلى ما ترتب على وجوه القراءات من اختلاف الإعراب والمعنى.

واتخذ من نص القرآن أنه أنزل بلسان عربى مبين منطلقا للوقوف على وجوه البلاغة فألم بالتقديم والتأخير، والذكر والحذف، والزيادة والتكرار، والتمثيل. وهو لا يقف عند هذه الوجوه يتعمق بحثها، وهذا لا يعيبه، فلم تكن هذه البلاغة غايته.

تدرك من هذا العرض أن الدرس البلاغى كان ممزوجا بغيره من علوم العربية، وهذا ما ينبغى أن يظل فى الدارس البلاغى. فالبلاغة حكم أدبى مفسر محلل معلل وهذا لحكم لم يصدر إلا بعد موازنات أدبية. معنى هذا أن دارس البلاغة محتاج إلى علوم العربية وغيرها من العلوم الإنسانية كعلم النفس، وعلم الجمال لكن أهم العلوم لدارس البلاغة هو علم النحو، فالبلاغة هى فلسفة النحو. وهذا ما ستقف عليه فى دراستك علم البديع فى الفرقة الثانية، وعلم البيان فى الفرقة الثالثة، وعلم المعانى فى الفرقة الرابعة.

ثانيا - نشأة البلاغة على يد الجاحظ (توفى سنة ٢٥٥ هـ)

تأمل الجاحظ لهذه المكانة بدوره الاعتزالى الذى انتهى برفضه الخوض فى مسألة (خلق القرآن)، وإقباله على التأليف فى (نظم القرآن) وإعلانه المتكرر فى كتابيه الحيوان والبيان والتبيين إنه يتجه إلى جماعة المسلمين ولايختص بفكر المعتزلة. وباختراعه أبوابا من رواية لآثار الأدبية المختارة لجودتها الفنية سماها أبواب الحفظ والمذاكرة. وقد جعلها بمثابة الفواصل لكتابه الكبير الحيوان الذى تبلغ صفحاته الأصلية من تحقيق العلامة عبد السلام هارون ٣١٧٤ صفحة، تحتوى على بحوث لغوية وكلامية وبلاغية وأدبية وتاريخية وقد تناولها تناولا علميا لايخلو من جفاف وتعقيد، فاحتال بأبواب الحفظ والمذاكرة لدفع الملل عن القارئ، ولاستعادة نشاطه كى يواصل قراءة الكتاب. وهى أبواب فيها من الأدب الإمتاع والطرافة والإفادة.

كان الجاحظ فى هذه الأثناء شيخا تجاوز الثمانين، زهد فى الحياة السياسية فى بغداد وسامراء، ولزم داره بالبصرة بعد أن أصيب بداءين متقابلين هما: النِّقْرِس والفالج وصار صاحب دار كبيرة يخدمه عبد وجارية ويختص به وراق، وله ضيعة تدر عليه دخلا كبيرا، وترسو سفينة خاصة به يعمل عليها ملاح يبحر به عند الأصيل فى شط العرب.

وكان كبار الأدباء يزورون شيخ الأدباء ويطلعون مما دوَّنه ورَّاقُه على الجديد الذى يمليه الجاحظ، فسألوا صاحبهم أن يكثر من أبواب الحفظ والمذاكرة فهى أبواب من دراسة الأدب فيها عرض للجيد من الآثار، ومعالجة لقضايا البلاغة ووجوهها، وفيها كشف للمعانى الأدبية التى تعد الحلبة التى يتسابق فيها الأدباء للفوز بقصب السبق -فأجابهم، وترك كتابه الحيوان وألف كتابه البيان والتبيين وانتهى منه، وقصره على درس الأدب واستعراض فنونه، وكانت للبحوث البلاغية فيه النصيب الأوفر. وفى كتاب البيان والتبيين تجد الجاحظ راوية متميزا يعرض عليك الثمار التى جناها من درس الأدب عند شيوخه. وقد استعرضنا ذلك الجنى بالتفصيل العلمى الدقيق فى دراستنا عن كتاب البيان والتبيين المخطوطة ولما تنشر فارجع إليها بمكتبة كلية الآداب إن أردت المزيد.

إن درس أبواب الرواية العلمية التقليدية (رواية الشاهد والمثل) والرواية الأدبية التصنيفية (أبواب الحفظ والمذاكرة) فى كتابيه البيان والتبيين والحيوان يؤكد هذا الدرس إن الرواية والحكم البلاغى جانبان متداخلان فى شخصية الجاحظ شيخ الأدباء الذى عزف عن الخصومة، وعكف على الدرس البلاغى الذى يجمع الأمة الاسلامية على الحق والصواب والجمال وهى أمور توحد الأمة بعد أن فرقتها السياسة.

ندرس هذا الدور مقسما إلى أربعة موضوعات:

أ- قضايا بلاغية عامة　　ب- باب البيان

ج- صحيفة بشر بن المعتمر　　د- إصابة المقدار

أ- قضايا بلاغية عامة:

* كتب الجاحظ عامة وكتاب (البيان والتبيين) خاصة عمدة كل دارس للبلاغة العربية.

* البلاغة التى قدمها لنا الجاحظ مستخلصة من درس الأدب وممتزجة به إنشاء ودراسة وغير قاصرة على الشعر أو النثر، بل تجمع الخطبة والكتابة مع الشعر قصيده ورجـــزه وتعـــتمد الأدب حين يؤدى، لذلك عرضت البلاغة على يد الجاحظ لطبيعه العمل الأدبى من حيث استعداد الأديب وما يوازره من اكتساب بالرواية والممارسة، والمظاهر الدالة عى نضج الخطيب مثل اقتداره على الارتجال، وسرعة بديهته فى الرد عى المناظر، والمواتاة عند الشاعر، متى تنثال عليه القوافى، ومتى تتعذر عليه، وتفسير ذلك.

والفكرة المسيطرة على البلاغيين فى هذا العصر أن القول المنطوق هو الأصل، وما الكتابة سوى رموز لما هو منطوق، فاهتموا بتمام آلة البيان من حيث حسن الأداء بإخراج الحروف من مخارجها. وسلامة اللسان والأسنان والشفتين. وبحثوا فيما يعترى هذه الأعضاء من عيوب خِلقية و أمراض عَرَضية، وأثر ذلك على النطق وصور التقصير فى الأداء البيانى لهذه الأسباب كاللثغة، وأضافوا إليها صورا أخرى لأسباب نفسية فتحدثوا عن التمتمة واللجلجة والحبسة.

ووصفوا الخالى من هذه العيوب المعبر عن نفسه تعبيرا مصيبا أنه المبين أو الفصيح. وأضافوا إلى ذلك دراسة للإشارة عند الخطيب والشاعر واهتموا بمظهره، ونبهوا على تجنبه لوازم مكرره قوليه أو حركية حتى لا تحسب عليه، وتجد الآن أن كل ممثل يقدر اختياره اللازمه. القولية أو الفعليه فى الدور الذى يؤديه ويستثمر تكرار اللازمة. وهذا الربط بين القديم والحديث أردنا به أن ننبهك إلى صلة رؤيتهم البلاغية فى القرن الثالث الهجرى بما نعايشه من نشاط فنى فى المسرح والتليفزيون وهى التفاته لاتتسق مع المنهج التاريخى فى درس الأدب، ولكنها تتسق مع المنهج البديعى الذى ندعو إليه.

ونظروا إلى أثر سلوك الخطيب الشخصى أى أخلاقه فى جمهوره وأهم من هذا كله اعتقاده بما يقول، وعبروا عن هذا بأن الكلمة إذا صدرت عن القلب بلغت القلب، وأنها إذا صدرت عن اللسان لم تتجاوز الآذان، أى ربطوا بين القول والفعل وهذا موقف إيمانى أقرته كل الأديان السماوية قال تعالى (كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون). (الصف٢)

وربطوا البلاغة بالحضارة حين تحدثوا عن الإشارة والصمت ومواطن الإطناب، ولغة العامة ولغة الخاصة، وجودة الاستهلال فى الخطبة والقصيدة، وحسن الانتقال، وجودة القطع، وآداب المناظرة وتقاليدها الملزمة للمتناظرين بالقصد إلى الحجة والبعد عن الاستطراد أو إحراج الخصم أو تجريحه أو رفع الصوت عليه والاتجاه إلى الجمهور للحصول على ثقته واحترامه وتأييده.

ويمكن تحديد أهم إضافات الجاحظ إلى الدرس البلاغى فى النقاط الآتية:

* أن من حق الأديب أن يبتكر فى اللغة عن طريق الاشتقاق والتجوز والتشبيه بشرط المحافظة على أصولها ومقاييسها. وقد رفض دعوة الجمود التى أعلنها شيخه الأصمعى فى كتابه الحيوان فى سياق حديثه عما ترك الناس من ألفاظ الجاهلية وما اشتقوا من كلمات إسلامية محدثة، قال: «وأسماء حدثت ولم تكن، وإنما اشتقت لهم من أسماء متقدمة على التشبيه، مثل قولهم لمن أدرك الجاهلية والاسلام (مخضرم)... ومن هذا باب (الملة)، والملة موضع الخبزة، فسموا الخبزة باسم موضعها، وهذا عند الأصمعى خطأ.

وقال فى سياق حديثه عن علم العرب فى الطعام فى كتابه البخلاء: «كان الأصمعى يقول: قد كان للعرب كلام على معان، فإذا ابتدلت تلك المعانى لم يتكلم بذلك الكلام، فمن ذلك قول الناس (ساق إليها صداقها) وإنما كان هذا يقال حين كان الصداق إبلا وغنما». قال الجاحظ: وفى قياس قول الأصمعى إن أصحاب التمر الذين كان التمر دياتهم ومهورهم كانوا لا يقولون (ساق فلان صداقه)، قال: ومن ذلك قول الناس اليوم: (قد بنى فلان البارحة على أهله) وإنما كان هذا القول لمن كان يضرب على أهله فى تلك الليلة قبته وخيمته، وذلك هو بناؤه... وكان الأصمعى يعد من هذا أشياء ليس لذكرها ها هنا وجه».

* ورفض الجاحظ مبدأ ثنائية اللفظ والمعنى، فقد تصور بعض البلاغيين أنهما يأتيان من واديين مختلفين (الشكل والمضمون) وعند الجاحظ أن

العلاقة بينهما هى التلازم كالروح والجسد لاحياة لأحدهما بدون صاحبه. وعنده أن الفكرة فى ذهن صاحبها لا يعتد بها إلا حين تسكن إلى اللفظ فتكتب لها الحياة فى اللحظة التى يعبر صاحبها عنها بالألفاظ وهذا هو البيان. وقد روى شكوى أعرابى لعامل الماء. قال الأعرابى: (حلنت ركابى، وخرقت ثيابى، وضربت صحابى) فقال صاحب الماء: أو سجع أيضا؟ قال الأعرابى: فكيف أقول؟! فصاحب الماء ظن أن الأعرابى كاذب لأنه ينمق كلامه بالسجع وهذا عنده دليل على التصنع والتزوير. وقد عقب الجاحظ على هذا الخبر أن الأعرابى صادق لأن اللفظ فى عبارته لا يجوز تبديله بغيره؛ فالركاب كل ما يركب، ولو وضعنا مكان هذا اللفظ: نوقى، أو بعرانى، أو جمالى، أو صرمتى لكان الأعرابى لم يعبر عن حق معناه، وكذلك الأمر فى ثيابى وصحابى فلفظ الأعرابى قد وضع فى موضعه الذى هو حقه وحظه ونصيبه الذى لاينبغى أن يجاوزه أو يقصر دونه.

وتعقيب الجاحظ يصور فهمه نظرية النظم أنها تقوم على الصدق فى الشعور والصدق فى التعبير وإلى هذا الصدق يرد اختيار الألفاظ وصياغتها فى تراكيب وتجسيمها فى صور بيانية. ومن هنا رفض وجود الترادف داخل العمل الأدبى فكلمة (حلنت) لاتؤدى معنى كلمة (منعت) وكذلك (ركابى) لامرادف يحل محلها فى هذا السياق ، كما رفض ما تصوره بعض البلاغيين أن الخلق الفنى يمر بمرحلتين: مرحلة التعبير العارى، ثم مرحلة التعبيرالمزخرف ، وأكد على فساد هذا التوهم بايراده شواهد من كلام البلغاء احتوت على وجوه بلاغيه عديده ووردت بداهة وارتجالا فى سياقات حوارية.

ويفضى بنا هذا إلى موقف الجاحظ من أصحاب البديع أو الشعراء الذين عنوا بترصيع شعرهم بوجوه بديعية عديدة، فقد عد ماوافق الطبع من هذه الأشعار مقبولا مستحسنا جاريا على سنن الكلام العربى، وعد المغالاة فى الاهتمام بتلك الوجوه مما يفقد النص الأدبى رونقه.

وجماع آراء الجاحظ كان حول درس القرآن الكريم فقد اختلف مع أستاذه النظام الذى كان يرى أن الإعجاز بالصرفة يعنى إن الله صرف العرب عن محاكاة القرآن بعجز أوجده فيهم وكان يرى أن القرآن معجز بإخباره عن الغيوب.

ورأى الجاحظ أن اعجاز القرآن فى نظمه؛ أى بتراكيب الجمل من حيث التقديم والتأخير، والخبر والإنشاء، والذكر والحذف، والتعريف والتنكير والإيجاز والإطناب. وقد شرح هذه النظرية فى كتاب أسماه (نظم القرآن) كما دلت النقول والاشارات إلى الكتاب على أنه فتح به فتحا جديدا فى الدراسات البلاغية. وقد بنى على هذه النظرية ابن قتيبة كتابه تأويل مشكل القرآن. وقد احتذاه كثير من البلاغيين فى مقولة إن إعجاز القرآن الكريم متمثل فى نظمه أشهرهم: الرمانى والخطابى وعبد الجبار والباقلانى وعبد القاهر الجرجانى، فهم قد ساروا فى الطريق الذى شقه الجاحظ لهم.

ب - باب البيان

فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ[٢]

«قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعانى: المعانى القائمة فى صدور الناس المتصورة فى أذهانهم. والمتخلجة فى نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة فى معنى معدومة. لايعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولاحاجه أخيه وخليطه، ولامعنى شريكه والمعاون له على أموره، وعلى مالايبلغه من حاجات نفسه إلابغيره. وإنما يحيى تلك المعانى ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها. وهذه الخصال هى التى تقربها من الفهم، وتجليها للعقل، وتجعل الخفى منها ظاهرا، والغائب شاهدا، والبعيد قريبا. وهى التى تلخص[٣] الملتبس، وتحل المنعقد، وتجعل المهمل مقيدا،[٤] والمقيد مطلقا، والمجهول معروفا، والوحشى مألوفا، والغفل موسوما، والموسوم معلوما. وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة. وحسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى. وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع.

والدلالة الظاهرة على المعنى الخفى هو البيان الذى سمعت الله عز وجل يمدحه، ويدعو إليه ويحث عليه. بذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم.

والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضى السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله، كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أى جنس كان الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التى إليها يجرى القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام؛ فبأى شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان فى ذلك الموضع.

ثم اعلم - حفظك الله - أن حكم المعانى خلاف حكم الألفاظ؛ لأن المعانى مبسوطة إلى غير غاية، وأسماء المعانى مقصورة معدودة، ومحصلة محدودة.

وجميع أصناف الدلالات على المعانى من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لاتنقص ولاتزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد(٥) ، ثم الخط، ثم الحال التى تسمى نِصْبَة. والنِّصْبَةُ هى الحال الدالة، التى تقوم مقام الأصناف، ولاتقصر عن تلك الدلالات. ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة عن صورة صاحبتها، وحلية مخالفة لحلية أختها، وهى التى تكشف لك عن أعيان المعانى فى الجملة، ثم عن حقائقها فى التفسير، وعن أجناسها وأقدارها. وعن خاصها وعامها، وعن طبقاتها فى اسار والضر، وعما يكون منها لغوا بهرجا، وساقطا مطرحا.

قال أبوعثمان: وكان فى الحق أن يكون هذا الباب فى أول هذا الكتاب، ولكنا أخرناه لبعض التدبير.»

جمع الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين بين دور الراوية ودور المؤلف. واستهلاله باب البيان بعبارة (قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعانى..)

يوحى أنه يروى عن غيره، ولكن الحقيقة إن هذا الباب من تأليفه؛ لأنه يحمل فكره البلاغى وقد صاغه بأسلوبه وقد وجدناه فى بعض آثاره الشعريه فى الكتاب يقدمها بعبارة (قال الشاعر) وكل المصادر تجمع على أن الأبيات من شعره. والعبارة التى ختم بها الباب (وكان فى الحق أن يكون هذا الباب فى أول هذا الكتاب، ولكنا أخرناه لبعض التدبير) تؤكد ما نذهب إليه فليس من المألوف أن يكون أصل الكتاب وخطبته مما يرويه المؤلف. وقد تلت هذه العبارة شروح للجاحظ على الباب تدل على أنه صاحبه.

أما (التدبير) الذى نص عليه فقد أراد به الصفحات السابقة على هذا الباب، وقد تناول فيها موضوعات قصور أسباب البيان وهى كثيرة كالعى واللثغة والتمتمة والفأفأة والثأثأه واللكنه واللفف. وموضوعات المبالغة فى أسباب البيان كالتشادق، والتقعير...يريد بهذا التقديم والتأخير أن يقول إن البيان فضيلة هى وسط بين مذمومين إفراط وتفريط.

لقد عرف الجاحظ نظرية الأوساط الأخلاقية الأرسطية، وبين أن الإصابة أو إصابة المقدار هى أولى بالاتباع. والإصابة تتحقق فى الوسط كثيرا.البيان لغة الإيضاح و الظهور، ويستعمل للدلالة على ألوان من المعانى ولايختص بفن القول، ولعل ورود الكلمة فى القرآن فى سياقات شتى تتصل بالقول وبالهداية مما جعلها أكثر ارتباطا بهذين المعنيين. قال تعالى (قد بينا الآيات لقوم يوقنون)[٦] وقال سبحانه: (وما أنزلنا عليك الكتاب إلالتبين لهم الذى اختلفوا فيه) [٧] وقال جل ثناؤه:

(وما أرسلنا من رسول إلابلسان قومه ليبين لهم) [٨] وذكرت البينات فى القرآن للدلالة على حجج الله سبحانه على خلقه [٩] . ولفظ (البيان) ورد فى القرآن فى ثلاث آيات، هى قوله تعالى من سورة آل عمران فى سياق الحث على ترك الربا والمسارعة إلى مغفرة من لله، والاعتبار بعاقبة المكذبين من الغابرين (هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) [١٠] .وقوله سبحانه من سورة القيامة فى سياق بيان قدرته على بعث الناس يوم القيامة، وتبصير الرسول عليه السلام بكيفية تلاوة القرآن: (لاتحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فاذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه)[١١]

والآيتان وردتا فى سياق يتصل بالقرآن الكريم نفسه. أما قوله سبحانه وتعالى من سورة الرحمن (الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان) فقد اختلف المفسرون فى تفسيرها، وماأحسن ما فسرها به الزجاج، قال: إنه عنى بالإنسان هاهنا النبى صلى اله عليه وسلم. علمه البيان أى علمه القرآن الذى فيه بيان كل شىء.

وقيل الانسان هنا آدم عليه السلام. ويجوز فى اللغة أن يكون الإنسان اسما لجنس الناس جميعا. ويكون على هذا علمه البيان: جعله مميزا حتى انفصل الإنسان ببيانه وتمييزه من جميع الحيوان.

أكد اللغوين والمفسرون ارتباط مدلول البيان بالهداية. قال صاحب اللسان «يقال: بان الحق يبين بيانـــــا فهو بائن. وأبان يبين إبانه فهو مبين بمعناه. ومنه قوله تعالى (حم والكـتاب المبين) أى والكتاب البين.

وقيل معنى المبين: الذى أبان طرق الهدى من طرق الضلالة. وأبان كل ماتحتاج إليه الأمة. وإلى هذا المعنى ذهب الزجاج، قال: فمعنى مبين أنه مبين خيره وبركته، أو مبين الحق من الباطل والحلال من الحرام، ومبين أن نبوة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حق، ومبين قصص الأنبياء».(١٢)

أما كلمة التبيين فتحمل إلى جانب معنى الوضوح ومعنى الهداية معنى التأنى والتثبت، يبين ذلك مارواه صاحب اللسان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (....إلا أن التبيين من الله والعجلة من الشيطان فتبينوا) وما رواه الفيروزبادى عن أبى عبيد عن الكسائى وغيره أن: (التبيين: التثبت فى الأمر والتأنى فيه).

استعمل أبو عثمان لفظ البيان قريبا من لفظ الأدب فى كتابه. كما أطلق لفظ (الأدب) على بعض أبواب كتابه. وقد عارض ابن المقفع فى أدبيه الصغير والكبير بكتابه المعاد والمعاش الذى سماه كتاب الآداب. ووجه لمعارضة عنده أن الأدب ينبغى أن يكون صالحا لأمور الدين والدنيا معا. ولانستطيع أن نقول إن الأدب فى كتابه المعاد والمعاش يعنى البيان فقد كان يعنى أدب النفس وليس أدب الدرس.

الخلاصة إنه اختار لكتابه عنوان(البيان) ولم يختر(الأدب) لأن الأدب معنى الدراسة. ولأن البيان نتاج القريحة والدراسة معا، فهو يعنى عنده فنون القول؛ لهذا فضل (البيان) على (الأدب) الذى يعنى ألوان السلوك فنون القول معا. ولأن (البيان) هو أدب الهداية.

الفقرة الأولى فى باب البيان تعنى أن (البيان) أصل الاجتماع والتحضر، وأنه ضرورة نفسية تزيل الغربة وتحقق الاجتماع بما فيه من تبادل المصالح فى المعاملات كلها بين أفراد المجتمع، وبه تتحدد الحقوق والواجبات، فإنسانية الانسان مرتبطة بالبيان. هذا مااجتمع عليه العرب والعجم وتفاخروا.

والجاحظ ينفى قيمة الفكرة التى لايبين عنها صاحبها، فالبيان الفكرة حين تسكن إلى اللفظ، وفى غير هذا الموضع صرح أن العلاقة بين اللفظ والمعنى علاقة تلازمية فلاوجود للفظ بلا معنى ولا وجود لمعنى لم يسكن إلى لفظ.

البيان عند الجاحظ الفكرة حين يعبر عنها صاحبها باللفظ أو الاشارة أو بالخط. البيان تعبير أخرجه صاحبه لغيره نفهم منه ماأراد. والتعبير يتضمن براعة ومشقة لأن إسكان المعنى فى اللفظ عملية تحتاج إلى إنسان متميز فى قدرته على التعبير.

حصر الجاحظ أصناف الدلالات على المعانى فى خمسة أشياء أولها اللفظ وثانيها الاشارةوثالثها العقد، وهو إشارة عرفية حسابية، ورابعها الخط، وخامسها النصبة وهى الحال الدالة.

إن تقديمه اللفظ والإشارة يفيد أن البلاغة فى نظره بيان يؤدى.

لقد كان متكلما صاحب خطابة ومناظرة والخطابةعنده تعنى كل فنون القول النثرية من خطبة ووصية ومنافرة ومناظرة ومناقلة.

وهذا الفكر البلاغى يصلح شكلية البلاغة التى ورثناهـا عـن شراح مفتاح العلـــوم للسكاكى، ويدعونا إلى إحياء الدرس البلاغى بالرجوع إلى فكر الجاحظ البلاغى.

وقد حدثناك عن منافسة مصطلح (البيان) مصطلح (البلاغة) من حيث الدلالة على عموم درس الأدب فارجع إلى ماذكرناه فى الفصل الأول من هذا الباب.

صحيفة بشر بن المعتمر

مر بشر بن المعتمر بابراهيم بن جبلة بن مخرمة السكونى الخصيب، وهو يعلم فتيانهم الخطابة، فوقف بشر فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة، فقال بشر : اضربوا عما قال صفحا واطووا عنه كشحا. ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه، وكان أول ذلك الكلام:

«خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرا، وأشرف حسبا. وأحسن فى الأسماع، و أحلى فى الصدور، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل عين وغرة، من لفظ شريف ومعنى بديع. واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة، وبالتكلف والمعاودة. ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا، وخفيفا على اللسان سهلا؛ وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه. وإياك والتوعر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك.

ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما؛ فإن حق لمعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما — وعما تعود من أجله أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس إظهارهما — وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما.

فكن فى ثلاث منازل؛ فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا، وفخما سهلا، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا، وقريبا معروفا، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت.

والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معانى الخاصة، وكذلك ليس يتصنع بأن يكون من معانى العامة. وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال. وكذلك اللفظ العامى والخاصى. فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك إلى أن تفهم العامة معانى الخاصة، وتكسوها الألفاظ الواسطة التى لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء، فأنت البليغ التام.

فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ولا تسمح لك عند أول نظرك وفى أول تكلفك، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصر إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها، والقافية لم تحل فى مركزها وفى نصابها، ولم تتصل بشكلها، وكانت قلقة فى مكانها، نافرة من موضعها، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول فى غير أوطانها، فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور، لم يعبك بترك ذلك أحد. فإن أنت تكلفتهما ولم تكن حاذقا مطبوعا ولا محكما لشأنك بصيرا بما عليك ومالك، عابك من أنت أقل عيبا منه، ورأى من هو دونك أنه فوقك.

فإن ابتليت بأن تتكلف القول، وتتعاطى الصنعة، فلا تعجل ولا تضجر، ودعه بياض يومك وسواد ليلتك، وعاوده عند نشاطك وفـراغ بالك؛ فإنك لاتعدم الإجابة والمواتاة، إن كانت هناك طبيعة، أو جريت من الصناعة على عرق. فإن تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض، ومن غير طول إهمال، فإن المنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك، وأخفها عليك. فإنك لم تشتهه ولم تنازع إليه إلا وبينكما نسب، والشيء لا يحن إلا إلى ما يشاكله، وإن كانت المشاكلة قد تكون فى طبقات؛ لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة، كما تجود به مع الشهوة والمحبة. فهذا هذا.

وقال : ينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعانى، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعانى، ويقسم أقدار المعانى على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات.

فإن كان الخطيب متكلما تجنب ألفاظ المتكلمين. كما أنه إن عبر عن شيء من صناعة الكلام واصفا أو مجيبا أو سائلا، كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين إذ كانوا لتلك العبارات أفهم، وإلى تلك الألفاظ أميل، وإليه أحن وبها أشغف، ولأن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء، وأبلغ من كثير من البلغاء. وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك

المعانى، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأســـــماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له فى لغة العرب اسم، فصاروا فى ذلك سلفا لـكل خلف، وقدوة لكل تابع. ولذلك قالوا العرض والجوهر، وأيس وليس، وفرقوا بين البطلان والتلاشى، وذكروا الهذية والهوية والماهية وأشباه ذلك. وكما ضع الخليل بن أحمد لأوزان القصيد وقصار الأرجاز ألقابا لم تكن العرب تتعارف تلك الأعاريض بتلك الألقاب، وتلك الأوزان بتلك الأسماء، كما ذكروا الطويل، والبسيط، والمديد، والوافر، والكامل، وأشباه ذلك، وكما ذكروا الأوتاد والأسباب والخرم والزحاف. وقد ذكرت العرب فى أشعارها السناد والإقواء والإكفاء، ولم أسمع بالإيطاء. وقالوا فى القصيد والرجز والسجع والخطب، وذكروا حروف الروى والقوافى، وقالوا : هذا بيت، وهذا مصراع.

وكما سمى النحويون، فذكروا الحال والظروف، وما أشبه ذلك، لأنهم لو لم يضعوا هذه العلامات لم يستطيعوا تعريف القرويين وأبناء البلديين علم العروض والنحو. وكذلك أصحاب الحساب قد اجتلبوا أسماء جعلوها علامات للتفاهم.(١٢)

من بشر بن المعتمر؟ هو أبو سهل بشر بن المعتمر الهلالى رئيس معتزلة بغداد، اتصل بالفضل بن يحيى البرمكى فوصله بالرشيد. ويفهم من إشارات الجاحظ إليه أن المعتزلة كانت تجتمع بداره فى بغداد، قال « كنا فى مجلس بشر بن المعتمر يوما. وعنده المردار... الخبر »(١٤) وأشهر تلاميذه فى الاعتزال أبو موسى المردار، وثمامة بن أشرس النميرى، وأحمد بن أبى دواد. توفى بشر سنة ٢١٠هـ.

كان بشر بحكم مكانته خطيبا بارعا باحثا فى أسس الفن الخطابى.. والراجح من سياق النص أن إبراهيم هذا الذى لم نجد فى كتب التراجم إشارة عنه كان أحد المعتزلة معلمى الخطابة فى بغداد، وأنه كان يسلك فى ذلك مسلكا عمليا فى تدريب الفتيان، وأن التدريب كان يتم فى مكان مكشوف غير المسجد، ولعله أحد أفنية الدور، أو فى الجُبَّان.

والصحيفة تبين جهد المعتزلة فى استنباط قواعد البيان العربى مستمدة من ممارستهم لهذا الفن. وكثير من الموضوعات الواردة فيها وجدنا إشارات إليها فى مجالس المعتزلة. فبشر بن المعتمر يشير إلى مبدأ إفهام العامة معانى الخاصة، وقد وجدنا هذا الموضوع من مباحث معتزلة البصرة، كذلك حديثه عن اللفظ والمعنى وجدنا إشارات متكررة إليه. أما صحيفة بشر فتمتاز على تلك الإشارات المتناثرة بالشمول لنظرية الأدب فقد عالجناها فى كتابنا (آراء الجاحظ البلاغية جـ١) تحت عنوان: آراء الجاحظ فى الشعر والخطابة [١٥] فارجع إليها وأهم هذه الفصول الخمسة بصحيفة بشر بن المعتمر: النظرية فى الغريزة والبيئة والعرق [١٦]، وقضية التوصيل [١٧]، وطبقات الشعراء [١٨]، وهى بعض موضوعات الفصل الأول. وانظر طبقات الخطباء [١٩] من موضوعات الفصل الثانى. ولن تجد خلافا بين بشر بن المعتمر والجاحظ إذا فتشت فى كتب الجاحظ كلها. وستجد اختلافا بينه وبين بعض المعتزلة وأولهم أستاذه فى الاعتزال إبراهيم بن سيار النظام. وقد شرح صحيفة بشر شرحا يدلك على مبلغ اتفاقه مع بشر.

موجـز النظرية فى الأدب أن الموهبة الأدبية عطاء يخص الله به من يشاء متى يشاء، بالصورة التى يقدرها فقد تكون محدودة فى القصيد دون الرجز أو فى الرجز دون القصيد أو فيهما أو فى الخطابة أو فى الرسائل أو فى كل هذه الأمور.

والموهبة الأدبية لون خاص من التميز وكل إنسان ميسر لما خلق له، فقد يكون الانسان موهوبا فى التجارة أو الصناعة أو الفلاحة أو فى الألحان أو فى الغناء أو فى تلاوة القرآن أو فى التسابيح. والموهبة تميز فى الذكاء فى جانب ينبغى أن يعان بذكاء فى جوانب أخرى أهمها الجوانب الاجتماعية. والأدب لابد فيه من هذا التميز الفطرى. والموهبة فى صورتها الساذجة لا تكفى ويمكن أن تندثر، ولابد من أن تعان بالاكتساب بأن يلزم الموهوب فى مجال الشعر الشعراء، والموهوب فى مجال الخطابة الخطباء، وهكذا، وقد تعان الموهبة الأدبية بجانب وراثى أو لا تعان. والذى لابد من تحققه ولكى تنمو الموهبة الأدبية، توفر البيئة الأدبية، وتعامل الأديب الواعد معها وعرض نتاجه الأدبى عليها واعترافها به دون إحراج منه ودون محاباة منها. وتزداد الموهبة ترسخا من خلال النجاح الذى يحققه الأديب حين يتعامل مع جمهوره. وليس الإخفاق أقل تعليما للأديب من النجاح.

صحيـفة بشر تفترض للأدب مثلثاً ١ -أديب، يصنع ٢- أدباً ٣- لجمهور. فإنشاء الأدب يدخل فى بنائه الجمهور المتوجه إليه الأديب. ودرس الأدب يفسر ويعلل نجاح الأديب أو إخفاقه مع جمهوره. وتبحث الصحيفة التفاعلات بين أطراف الأدب الثلاثة.

والصحيفة تقدم الأدب الذى أنشىء لحظة مواتاة الطبع صاحبه.. أى الإلهام لأنها لحظة الصدق فى الشعور والصدق فى التعبير ففيها الإصابة وهى أفضل من إكراه النفس على التأليف بالكد والمطاولة. ففى الأولى تتحقق فى الأدب صفات الحسن فى السهل الممتنع، وفى الثانية تتحقق صفات القبح فى النتاج الأدبى وهى التوعر والتعقيد والمعانى المستهلكة والألفاظ المعيبة.

والصحيفة مؤسسة على تصور علاقة وجدانية بين الأديب وجمهوره،يؤكد هذه الحقيقة ما صوره الجاحظ من أنهم يمدحون الحذق والرفق، والتخلص إلى حبات القلوب، وإلى إصابة عيون المعانى، أى أن يبلغ الأديب وجدان المستمع كما يبلغ عقله. وأساس هذه العلاقة عندهم اعتقاد المتكلم بما يقول، ورغبته الصادقة فى النصح والإفادة. وتصور هذه العلاقة أفادهم نفى ما يسىء إليها فعابوا السلاطة والهذر والتكلف والاسهاب وحددوا للايجاز مواطنه التى تليق به وتستدعيه وللاطناب أسبابه ودواعيه .

وتقسم الصحيفة الكلام الى طبقات تبعا لأقدار الناس .

تحليل المعنى يقوم على أن صورة المقال تختلف عند البلاغيين بحسب المقام، فالمعنى الدلالى ناتج المعنى المقالى أى الألفاظ والتراكيب، والمعنى المقامى وهو السياق الذى صاحب إنشاء الأدب بجوه النفسى والاجتماعى والسياسى..... هذه القاعدة الذهبية قام عليها علم الدلالة.

وقـــد تحدثت الصحيفة عن دور المتكلمين فى تحديد دلالات الألفاظ، وعن دور المعتزلة وعن دور العلماء فى إكساب الألفاظ دلالات جديدة، وأن قدرتهم على التجوز تدل على علو قدرهم، وقد أثبتت الصحيفة أن النهضة العلمية تلازمها نهضة بلاغية.

وتربـــط الصحيفة بين التطور الدلالى وطبقات المجتمع. والمتتبع لحديث المعتزلة عن الطبقات يجد أن هذه المسألة تنزل من تفكيرهم منزلة الفلسفة.

وأوضـــح من قول بشر فى صحيفته عن الطبقات قول الجاحظ «..وكما لاينبغى أن يكون اللفظ عاميا، وساقطاً سوقياً، فكذلك لاينبغى أن يكون غريباً وحشياً إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً، وكلام الناس فى طبقات كما أن الناس أنفسهم فى طبقات»(٢٠)

إن الطبـــقات فى كلام بشر والجاحظ مقسمة تقسيماً بيانياً، وملامح تصورهما لهذا التقسيم أن الطبقة العليا ليست ذات الثراء العريض أو النسب الرفيع وإنما ذات البيان والعلم بالعربية وهذه تشمل جل الحاكمين وعلماء العربية وكبار الأدباء. فالموالى الذين رفع الله ذكرهم بالاسلام وصاروا من علماء العربية عدوا من هذه الطبقة الأولى. والطبقة الدنيا عندهم هى التى لاتصل الى مرتبة العامة لأنها غير موصوفة بالبيان، وهم فى نظرهم أصحاب الحرف .(٢١)

وتحـــدد الصحيفة أن البلاغة ليست فى اللفظ المبتذل ولا فى الغريب المهجور، كـــما أنـــها مرتبطة بالاستعمال اللغوى الذى يسير على مجارى كلام العرب الفصحاء، والمجاز هو التوسع فى الاستعمال، أو الترخص فى التعبير بصفة عامة.

وتنص على أن مدار الشرف فى المعنى ليس فى اتصاله بالليل أو الموت أو البحر أى الموضوعات الكبرى بل شرف المعنى هو الصواب وإحراز المنفعة أى استخلاص العبرة، لهذا درسوا الحيوان لاستكشاف ما أودعه الله فى الخلق الكبير كالفيل والجمل وفى الخلق الصغير كالذر والذباب وخرجوا بمعان ذات خطر أثرت أدبنا العربى.

د - إصابة المقدار

درسنا فى رسالتنا الثانية، وعنوانها (آراء الجاحظ البلاغية وتأثيرها فى البلاغيين العرب حتى القرن الخامس الهجرى) وجوه البديع عند الجاحظ -وهذا الجزء لما ننشره- فوجدناه يصدر فى أحكامه البلاغية لهذه الوجوه عن معيار للقيمة واضح فى تصوره سماه إصابة المقدار. وراجعنا مآخذه على الشعراء بالدراسة فوجدناه يعيب آثارا أدبية افتقد الأثر منها جانبا من جوانب معيار للقيمة. هذا المعيار وقفت عليه فى التأكيد على الإصابة فى تعريف البلاغة، وكذلك الأمر فى البديع القائم على عنصر الابتكار، وهو مظهر التفوق والتفرد بين الشاعر وأقرانه، بل بينه وبين نفسه، فالشاعر لايعد صاحب بديع قبل أن يصيب فى المعارف الطبيعية، وفى اللغة، وفى القيم الإيمانية وفى أصول الصنعة الفنية.

يؤكد هـــذه المقولة أبو طاهر البغدادى فيما نقله عن الأردستانى، قـــال [٢٢] : «ومن (لمع صناعة الشعر) للأردستانى قال: وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعر لشرف المعنى، وجزالة اللفظ، وصحة المبنى، فتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب وألطف، وشبه فسدد، ولمن كثرت له سوائر الأمثال، وشوارد الأبيات، ولم يكن يهتم بتتبع البديع إذا حصل له عمود الشعر، ونظام القريض، على أنه قد كان منهم من يتعمد لتنقيح شعره، ويتعمل لتحسين ألفاظه وتشذيبها وترصين مبانيه ومعانيه وتهذيبها، مثل زهير والأعشى والحطيئة وأبى صخر الهذلى، وعدى بن الرقاع، وأبى المثلم والخنساء وغيرهم. فإن أثر الصنعة ظاهر فى أشعار هذه الطبقة، ودال على مقاصدهم فيها، وشاهد بمعرفتهم بها، ويـــدل على

ذلك افتخارهم فى أشعارهم بالتجويد ووصفهم لمصابرة القول ومكابدة السهر فيه، والتخير منه، والصبر على عرضه وعمله حولا، حتى قالوا: (خير الشعر الحولى المنقح) يروى ذلك عن الحطيئة.

قال سويد بن كراع يذكر تقويمه لشعره وطول مصابرته له:

أبيت بأبواب القوافى كأنما .. أصادى بها سربا من الوحش نزعا
أكالئها حتى أعرس بعدما .. يكون سحيرا أو بعيدا فأهجعا
إذا خفت أن تروى على رددتها .. وراء التراقى خشية أن تطلعا

فأخبر أن القوافى تعتاص عليه، وأنه يكالئها ويكابدها ويسهر لها إلى أن تنقاد له....

وقال عمرو بن هند:

فإن أهلك فقد أبقيت بعدى قوافى تعجب المتمثلينا
لذيذات المقاطع محكمات لو أن الشعر يلبس لارتدينا

فلما أفضى الشعر إلى المحدثين، ورأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن وتميزها عن أخواتها فى الرشاقة واللطف، تكلفوا الاحتذاء عليها وسموها البديع، فمن محسن ومسىء، ومفرط ومقتصد، وهو ينقسم أقساما، ويتشعب شعبا، فمنها الطباق والتجنيس والاستعارة والمقابلة».

فالبديع بهذا المفهوم هو التفنن فى صنعة الشعر والقصد إلى هذه الصنعة، والصبر عليها، والاعتداد بها. وبهذا المفهوم يعد أصحاب البديع من الشعراء هم أهل الصنعة الذين ينقحون أشعارهم بمعاودة النظر فيها وتثقيف ما اعوج منها، ولايعلنونها إلا إذا كانت محكمة الصنع تتسم بالرشاقة واللطف.

فالشاعر صاحب البديع لايستجيب لطبعه استجابات تلقائية، لأن الشعر فى نظره صياغة وضرب من النسج، وجنس من التصوير، والشعر عنده اختيار وبهذا يفترق أصحاب البديع عن غيرهم من الشعراء من حيث الكيفية، أى زيادة التدقيق فى الاختيار والتأنى فى تحكيم أصول الصنعة والتوفر على المراجعة، لايبخلون بوقت أو جهد حتى يحوز العمل رضاء صاحبه بعد أن يعرضه على من يرتضى أذواقهم ويستوثق من حسن تقبلهم له من الشعراء النقاد.

لايقتصر البديع -بناء على هذا المفهوم- على عصر دون عصر. أما نسبة البديع إلى المحدثين والمولدين، والزعم بأن البديع لون فنى استحدثته الحياة الرافهة فى العصر العباسى، وأن أصحابه هم الثائرون على القيم الفنية الموروثة، وتقديم شعرهم باعتباره الوجه المقابل للتقاليد الفنية الموروثة -كل هذه الدعاوى تشكل لونا من التعصب لمذهب فنى رواه الآمدى فى شكل مناظرة بين فريقين يشايع أحدهما أبا تمام ويشايع الآخر البحترى. وهذا الفصل يعد لونا من النقد وليس من البلاغة.

فالبديع كما هو ثابت من نص الأردستانى عرف عند شعراء عاشوا قبل البعثة النبوية وشعراء عاشوا فى ظل الاسلام لم يتجاوز عطاؤهم الفنى المائة الأولى من الهجرة. ووجوه البديع التى ذكرها أبو طاهر البغدادى فى كتابه قانون البلاغة بل التى ذكرها أصحاب البديعيات منذ ابن المعتز وزادوا فيها هى وجوه البلاغة بلا استثناء، فالبديع عند أصحاب البديعيات مصطلح عام يعنى فى عمومه وجوه البلاغة كلها، شأنه فى هذه

الدلالة شأن علم (صنعة الشعر) و(البيان) و(البلاغة). ونزيد هذه القولة تفصيلا وتدليلا فى كتابنا (علم البديع رؤية جديدة). وارجع إلى كتاب (البلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقى ضيف ص ٣٥٨ ومابعدها) وستجد من استعراض وجوه البلاغة التى عالجها أصحاب البديعيات الدليل على مانقول.

ورد حديث الجاحظ عن إصابة المقدار ضمن آثار أدبية من مختاراته للحفظ والمذاكرة عنوانها (باب من الخطب القصار من خطب السلف، ومواعظ من مواعظ النساك، وتأديب من تأديب العلماء)، وفى سياق آثار فيها مطابقة مثل هذا الخبر: «قال رجل للحسن: إنى أكره الموت. قال: ذاك أنك أخرت مالك، ولو قدمته لسرك أن تلحق به». وهذا اخبر: «قل لقمان لابنه: «أى بنى، إنى قد ندمت على الكلام، ولم أندم على السكوت. وقال الشاعر:

ما إنْ نَدِمْتُ عَلَى سُكُوتِى مَرَّةً وَلَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى الكَلَامِ مِرَاراً

والشاهد فى إصابة المقدار قول الجاحظ: «وقال فى التطبيق:

فَلَمَّا أَنْ بَدَا القَعْقَاعُ لَجَّتْ عَلَـى شَرَكٍ تُنَاقِلُهُ نِقَالاَ
تَعَاوَرْنَ الحَدِيثَ وَطَبَّقَتْهُ كَمَا طَبَّقْتَ بالنَّعْلِ المِثَالاَ

قال: وهذا التطبيق غير التطبيق الأول.»[٢٢] فهو قد ميز بين لونين من التطبيق كما ترى.

والبـاب الثالث من البديع عند ابن المعتز فى كتابه البديع - هـ المطابقة، قال فى شرحه: «قال الخليل رحمه الله: يقال طابقت بين الشيئين إذا جمعتهما على حذو واحـد، وكذلك قـال أبو سعيد (عبد الملك بن قريب) فهى بمعنى إصابة الكلام الغرض المَسُوق له.»

والشاعر يصف ناقة تحمل نسوة فى الهودج وقد بدا لها طريق القعقاع الواصل بين اليمامة والبحرين والذى تتعامد عليه وتتوازى معه وتتقاطع معه طرق كثيرة، هى بمثابة الشَّرَكِ المُفْضِى إلى الهلاك لمن يسلكها، ولكن الناقة تلح على طريقها القعقاع لاتحيد عنه وتسرع الخطوات فى ثقة. والنسوة فى الهودج مطمئنات أنها لاتَضِلُّ طريقها إلى غايتها، لهذا يثرثرن آمنات وناقتهن تنقل اليد اليمنى مع الرجل اليسرى، واليد اليسرى مع الرجل اليمنى، وتوالى حركاتها بحيث تصيب قائمتاها فى الحركة الثانية ما أخلت فى الحركة الأولى بالضبط كما يقطع الحَذَّاءُ نعلا جديدا بحجم نعل قديم.

إن هـذا الشرح يفيد أن المطابقة مصطلح بديعى اتسقت اللغة فيه مع المصطلح خلافا لما قاله ابن حجه فى كتابه خزانة الأدب ص ٨٥: «وليس بين تسمية اللغة وتسمية الاصطلاح مناسبة، لأن المطابقة فى الاصطلاح الجمع بين الضدين.. كالإيراد والإصدار، والليل والنهار، والبياض والسواد.» فحركات ذوات الأربع لاتتم إلا بيد يمنى مع رجل يسرى، ويد يسرى مع رجل يمنى. وبين اليد والرجل مطابقة، واليمنى واليسرى مطابقة أخرى.

نقـل الرواة العلماء هذا المعنى إلى مجال دراسة الأدب وسجل الجاحظ لهم آثارهم. فقد وصف أعرابى أعرابيا بالإيجاز والإصابة، فقال: (كان والله يضع الهناء مواضع النقب) يظنون أنه نقل قول دُرَيْد بن الصِّمَّةِ فى الخنساء تماضر بنت عمرو بن الشريـد، إلـى ذلك الموضع- وكان دريد بن الصمة خطبها فردته، وكان رآها تهنأ بعيرا فقال:

حَيُّوا تُمَاضِرَ، وارْبَعُوا صَحْبِى ... وَقِفُوا، فإنَّ وُقُوفَكُم حَسْبِى
أَخُنَاسُ قَدْ هَـامَ الفُؤَادُ بِكُـمْ ... وَأَصَابَـــهُ تَبْلٌ مِنَ الحُبِّ
مـا إنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِـــهِ ... فِى النَّاسِ طَالِىَ أَيْنُقٍ جُرْبِ
مُتَبَذِّلاً تَبْـــدُو مَحَاسِنُهُ ... يَضَعُ الهِنَاءَ مَوَاضِعَ النُّقْبِ)(٢٤)

وقـد عقب الجاحظ على هذا النص بالتجوز فى دلالة الإصابة من خطوات الناقة إلى معايير البلاغة قال: «ويقولون فى إصابة عين المعنى بالكلام الموجز: (فلان يَفَلُّ المَحَزَّ، ويُصِيبُ المَفْصِلَ). وأخذوا ذلك من صفة الجزار الحاذق، فجعلوه مثلا للمصيب الموجز.»(٢٥)

واطر: هذا التجوز عنده فى مواضع مختلفة من كتبه، منها: «قال مرة (يعنى صاحبه المعتزلى ثمامة بن أشرس النميرى): مارأيت أحدا كان لايتحَبَّس ولايتوقف، ولايتلجلج ولايتنحنح، ولايرتقب لفظا قد استدعاه من بُعْد، ولايلتمس التخلص إلى معنى قد تَعَصَّى عليه طَلَبُه، أشد اقتدارا، ولا أقل تكلفا، من جعفر بى يحيى.»(٢٦)

قال ثمامة: قلت لجعفر بن يحى: ماالبيان؟ قال: أن يكون لاسم يحيط بمعناك ويُجَلِّى عن مَغْزَاك، وتُخْرِجُه عن الشَّرِكَة، ولاتستعين عليه بالفكرة، والذى لابد منه أن يكون سليما من التكلف، بعيدا من الصنعة، بريئا من التَّعَقُّد، غنيا عن التأويل. وهذا هو تأويل قول الأصمعى: (البليغ من طَبَّقَ المَفْصِل، وأغناك عن المُفَسِّر.)(٢٧)

وعقب الجاحظ على قول ثمامة بن أشرس، فقال: «وهذه الصفات التى ذكرها ثمامة بن أشرس، فوصف بها جعفر بن يحيى، كان ثمامة بن أشرس قد انتظمها لنفسه، واستولى عليـــها دون جميع أهـــل عصره.

وما علمت أنه كان فى زمانه قروى ولابلدى، كان بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف، ولامن سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ماكان بلغه، وكان لَفْظُهُ فى وزن إشارته، ومعناه فى طبقة لفظه، ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك».

فانظر كيف تم التجوز من الدلالة المادية للإصابة فى وضع الدواء مكان الداء، والإصابة فى حركة ذوات الأربع حين تنقل اليد اليمنى مع الرجل اليسرى واليد اليسرى مع الرجل اليمنى وتوالى حركاتها بحيث تصيب قوائمها فى الحركة الثانية المواضع التى أخلتها فى الحركة الأولى إلى الدلالة المعنوية لقيم البلاغة وهى قيم مركبة من عناصر فكرية ووجدانية واجتماعية، مركزة ومتشابكة بين أطراف ثلاثة ١- أديب ٢- ينتج أدبا ٣- لجمهوره.

قد يَدَّعِى مُدَّعٍ مُستَغْرِب أن إصابة المقدار هى نظرية الأوساط الأخلاقية الأوسطية (الفضيلة وسط بين مذمومين: إفراط وتفريط) وهذه النظرية تتصل بجانب واحد من الإصابة هو المعانى الشعرية. والحقيقة إن المعانى الشعرية عند الجاحظ والبلاغيين العرب لاتتفق دائما مع النظرية الأرسطية ففى مجالات نجدة الملهوف، ودفع الأخطار، ونُصرة العقيدة، وحماية الأعراض تسقط هذه النظرية ويتعرض المنادِى بها للهجاء والسخرية.

وقد تصور الدكتور شوقى ضيف فى كتابه (البلاغة تطور وتاريخ) أن إصابة المقدار هى الاحتراس، قال[٢٨]: «وتنبه لما سماه البلاغيون بعده باسم الاحتراس، وقد سماه إصابة المقدار، يقول: وقال طرفه فى المقدار وإصابته:

فَسَقَى دِيَارَكِ - غَيْرَ مُفْسِدِهَا - .. صَوْبُ الرَّبِيعِ وَدِيمَةٌ تَهْمِى

طلب الغيث على قدر الحاجة، لأن الفاضل ضار.»

وقد شرفت بمناقشة الأستاذ الدكتور شوقى صيف رسالتى الجامعية الثانية، وقد اعترض سيادته على ماذهبتُ إليه إن إصابة المقدار فى تصور الجاحظ مذهب فنى سلفى تمتد بعض جذوره عند بعض الجاهليين، وهو فى اللفظ يوافق مادعا إليه أن تكون الألفاظ ليست مبتذلة سوقية، وليست متوعرة وحشية، وأن يكون اللفظ موافقا لمعناه وكأنما خلق ذلك اللفظ لذلك المعنى.. وهو فى الخطابة موافقة الكلام لمقتضى الحال، وهو فى معانى الشعر يعنى به ماعرف بمذهب المقتصدين حيث يعدل الشاعر وينصف حتى أعداءه ويصيب فى صوره فلايَغْلُو ولايُقَصِّر.. وهو فى البديع الموافق قيم البلاغة، لهذا وجدناه يفرق بين البديع المستحسن والبديع المستهجن..»

وقد تمسكت بوجهة نظرى وذَكَّرْتُ سيادته بالسياقات التى ورد فيها حديث الجاحظ عن إصابة المقدار، وهى عدة أبواب متجاورة منها هذا العنوان الذى شمل روايات نثرية وشعرية تتصل بمعايير البلاغة العربية ولاتقتصر عليه فبعضها يتصل بصفة الطعام، وبعضها يتصل بزينة الرجل أو زينة المرأة. قال: (ويذكرون الكلام الموزون ويمدحون به، ويفضلون إصابة المقادير ويذمون الخروج من التعديل)[٢٩]وأن هذا المذهب متصل بحديث الجاحظ عن القِرَان الذى سماه البلاغيون بعده التلاؤم، ومتصل بحديث الجاحظ عن الاقتصاد فى البلاغة فقد قال (وفى الاقتصاد بلاغ) وقلت إن من شواهده فى المقدار وإصابتة قول طرفه:

فسقى ديارك غير مفسدها .. صوب الربيع وديمة تهمى

قال[٢٠]: «طلب الغيث على قدر الحاجة، لأن الفاضل ضار، وقال النبى صلى الله عليه وسلم فى دعائه (اللهم اسقنا سقيا نافعا) لأن المطر ربما جاء فى غير إبان الزراعات. وربما كان فى الكثرة مجاوزا لمقدار الحاجة، وقال النبى صلى الله عليه وسلم: (اللهم حوالينا ولاعلينا)».

كان الدكتور شوقى ضيف لايوافقنى على ماذهبت إليه فى ديسمبر ١٩٧٧، وبعد عام كان الدكتور عبد الواحد الشيخ قد أعد رسالته للدكتواره وذهب إلى الأستاذ الدكتور شوقى ضيف ليسلمها له تمهيدا للمناقشة فقال له: "بَلِّغ الدكتور أحمد فشل أننى راجعت ماكتبه الجاحظ عن إصابة المقدار وأوافقه على رأيه." لكننى لم أقرأ للدكتور شوقى ضيف مايتفق مع هذا التبليغ.

نعرض عليك ماكتبه أبو حيان التوحيدى عن إصابة المقدار شارحا نظرية الجاحظ، ونعدك أن يأتيك تصور الجاحظ كاملا لإصابة المقدار حين يتيسر لنا طبع الرسالتين الأولى والثانية، وستجد شرحا للنظرية فى كتابنا (علم البديع رؤية جديدة) كما تعرضنا لها فى كتابينا: (علم المعانى) و(علم البيان).

وعندنا إن إصابة المقدار مذهب فنى لم يَخْتَرِعْهُ الجاحظ، ولكنه وجده فقام بتنظيره والتدليل عليه، وعلى هَدْيِهِ اختار الآثار الأدبية التى سماها (أبواب الحفظ والمذاكرة) وعنه شاع.

ننقل لك شرح أبى حيان التوحيدى لإصابة المقدار وربطه بين الوجوه البلاغية المختلفة، قال[٢١]: «نظام البلاغة وعقدتها، والذى عليه المدار والمحار: أن يكون طالبها مطبوعا بها مفطورا عليها،

قد أُعِينَ بشهوة فى النفس، وأدب من الدرس، فإنه متى اختل فى أحد الطرفين بَدَا عُوَارُه، ولَصِقَ به عَارُه. والآفة فيها من الدخلاء الذين يستعملون الألفاظ ولايعرفون موقعها، أو يعجبون الاتساع، ويجهلون مقداره، أو يروقهم المجاز ويتعدون حدوده، أو يحسن فى حكمهم التصريح ولعل الكناية هناك أتم والإشارة فيه أعم، وهذه الخلال تجدها فى قوم عدموا الطبع المنقاد فى الأول وفقدوا المذهب المعتاد فى الثانى.

والسر كلـه أن تكون ملاطفا لطبعك الجيد، ومسترسلا فى يد العقل البازع ومعتمدا على رقيق الألفاظ، وشريف الأغراض، مع جزولة فى معرض سهولة، ورقة فى حلاوة بيان، مع مجانبة المجتلب، وكراهة المستكره، وركنه الذى يعول عليه، وكنفه الذى يأوى إليه أن يكون السجع فى الكلام كالملح فى الطعام، فإنه متى ظفر منه بمقدار ارتبة، وحسب الكفاية، حلا منظره، وبهر بهاؤه، ومتى زاد على المقدار ضارع كلام النسأة[٢٢] والكهنة من العرب، أو كلام المستعربين من العجم، وسأقصر لك فنون البلاغة اقتصاصا مجملا، تقف به على تفصيلها:

اعلم أن الفن الأول منه هو الكلام الذى يسنح به، وليس يخو هذ المطبوع من صناعة، والفن الثانى هو الذى يُطْلَبُ بالصناعة، وليس يخلو هذا المصنوع أيضا من طبع. والفن الثالث هو المسلسل الذى يبتدر فى أثناء المذهبين... ومهما أتيت فى هذا الشأن فلا تلهجن بالسجع، فانه بعيا المرام إذا طلب الواقع موقعه، والنازل مكانه، ولاتَهْجُرَنَّه أيضا فإنك تعد شَطْرَ الحُسْنِ، والذى يجب أن تعهد فى ذلك هو مقدار يجرى مجرى الطراز من الثوب، والخال من الوجه. وقد علمت أنه متى كثرت الخيلا فى الوجه وغمرته كان ترادف أجزاء السواد ذاهبا ببهجة تمام الحُسن.

والمتكلف معنى، والنـــاس بين عاشق للمعانى وتابع لها، فالألفاظ تواتيه عفوا، وكلف بالألفاظ، والمعانى تعصيه أبدا، فأما من جمع بين هذه وهذه، وكان قيما بمنثورها ومنظومها، عارفا باختلاف مواقع تأليفها فإنه الحاوى قصب الرهان، والمعدود فى أفاضل الزمان.

فاقصد -أيـدك الله- أن تكون كالصائغ الذى يصيب التبر، فيسكبه، ثم يصوغه، ثم يزينه، ثم ينقشه، ثم يسوقه، ثم يعرضه».

أدرك التوحيـدى[٢٢] أن أساس المذهب الفنى فى البلاغة الذى سماه الجاحظ إصابة المقدار فى الاحساس بمعانى الألفاظ ومواقعها فى الكلام وفى الاهتمام المتساوى باللفظ والمعنى، فلايطغى اهتمامه بأحدهما على الآخر، وفى الجمع بين جزالة الألفاظ وسهولة عرضها، وأيضا فى البصر بمواضع الايجاز ومواطن الإطناب تطبيقا لمبدأ المقام والمقال، وإصابة المقدار فى البصر بقوانين التجوز، وفى إدراك الفروق الدقيقة بين مقتضيات إدارة الكلام على الكناية أو التصريح.

أما إصابة المقدار فى الصورة التعبيرية فلا يترك الأديب السجع ولايسرف فيه، بل يصيب به مواضعه التى تروق، كما يصيب الطاهى مقدار الملح فى الطعام، ويصيب الحائك مقدار الطراز فى الثوب. فإصابة المقدار إذن معيار فنى متكامل يعادل بين الطبيعة والاكتساب، وهما الدعامتان اللتان يقوم عليهما كل عمل فنى لأنه يرى أن الإصابة تبدأ بالطبع الموروث والطبع الثانى المكتسب بمدارسة الأدب وهو الذوق الفنى الـذى يتمتع بـــه الأديب ودارس الأدب، ويعرض لأسباب عملية الخلق الفنى فى اللفـظ والمعـنى، والصـــورة البيانية، والصورة التعبيريـــة.

والتوحيدى يؤكد من خلال حديثه على عامل الاختيار فى الأدب الذى أعلنه الجاحظ فى قوله (إنما الشعر صياغة...) وشرحه أبو حيان بقوله: فاقصد أن تكون كالصائغ الذى يصيب التبر فيسكبه ثم يصوغه، ثم يزينه، ثم ينقشه، ثم يسوقه، ثم يعرضه. وقد نسى التوحيدى أساسا هاما بنى عليه الجاحظ كلامه فى إصابة المقدار هو التزام الأديب أو مسؤولية الكلمة، وقد فصلنا القول فيه فى كتابنا آراء الجاحظ البلاغية.

ثالثا: اتجاهات البلاغة بعد الجاحظ وقبل عبد القاهر الجرجانى من سنة ٢٥٥ هـ إلى سنة ٤٥٠ هـ تقريبا

إن الفترة منذ وفاة الجاحظ أواسط القرن الثالث الهجرى إلى ذيوع آراء عبد القاهر الجرجانى البلاغية أواسط القرن الخامس الهجرى تميزت فى حياة الدرس البلاغى بتعدد الاتجاهات، ووفرة الجهود، وتوفر المصادر كما اتسمت بظهور التأثر بالآثار الوافدة، وبخاصة: اليونانية والفارسية ظهورا واضحا بأعلامه وقضاياه وأبعاده المتفاوتة.

وكل آثار هذه الفترة كان للجاحظ دور فيها: فقد كان رائداً موسوعياً صدرت عنه هذه المدارس التى نحدثك عنها فى الدرس البلاغى.

١ - مدرسة الاختيارات الأدبية.

٢ - ابن المعتز ومدرسة البديع.

٣ - مدرسة إعجاز القرآن.

٤ - المدرسة التنويرية.

١ - مدرسة الاختيارات الأدبية:

عـرف وأرخ العلامه عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ - ٨١٨هـ) علوم اللسان العربى فى المقدمة التى جعلها الجزء الأول من كتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر...) فقال إن أركان اللسان العربى أربعة، وهى اللغة والنحو والبيان والأدب. وقد كان تعريفه علم البيان مشتملا على قضايا البلاغة وأعلامها وعلومها ومدارسها، كما ذكر المؤلفات التى تعد معالم هذا الدرس. ثم عرف علم الأدب، فقال: «هذا العلم لاموضوع له ينظر فى إثبات عوارضه أو نفيها، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته، وهى الإجادة فى فنى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم، فيجمعون لذلك من كلام العرب ماعساه تحصل به الملكة من شعر عالى الطبقة، وسجع متساو فى الإجادة، ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة....

قالـوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف...

وسمعنا مـن شيوخنا فى مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين، وهى أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبى على القالى. وماسوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها.»(٢٤)

رأيـت أن ابـن خلدون تكلم عن درس الأدب مرتين، الأولى جاءت فى سياق تأريخه علـم البـيان وقـد أبرز فيها بوضوح جهود مدرسة المتكلمين البلاغية وجهود مدرسـة البديـع. والـمرة الثانـية جاءت فى سـياق تعريـفه علم الأدب، فقد قال إن درس الأدب لم يقصد لذاتـه،

وإنما قصدت ثمرته وهى الإجادة فى فنى المنظوم والمنثور. وقرر إن شيوخ هذا الفن أجمعوا إجماعا تواتر قبله فترة امتدت أكثر من أربعة قرون على اختيار كتب ذكرها يؤدى درسها إلى حصول الملكة الأدبية عند الدارسين أصحاب المواهب الواعدة المؤهلة لإنشاء الأدب ودرسه، فدرس الأدب عند هذه المدرسة لايتم إلا من خلال مدارسة النصوص بين المعلم والمتعلم.

أمـا هذه الكتب المحددة التى وصفها أنها أركان الأدب الأربعة فقد ثبت يقينا أن أولها إنشاء هو كتاب البيان والتبيين للجاحظ، وعلى مثاله جاءت بعده ثلاثة الدواوين الباقية. وأشار إلى مختارات غيرها من الشعر والنثر واستثناها من الحكم الذى خص به أركان الأدب فقال إنها تبع لها وفروع عنها.

نجـد فى تعريف ابن خلدون سماحة وسعة أفق تتفقان وطبيعة إنشاء الأدب ودرسه، فقد عنى بقوله إن (الأدب علم لاموضوع له) أن الأديب غير مقيد بموضوعات يطرقها وأخرى يدعها من أغراض الشعر وفنون النثر، وهذه الحرية جاء النص عليها كثيرا فى كتب الأدب ودرسه. ونشير إلى موضعين فقط، الأول فى صحيفة بشر بن المعتمر فقد قال الجاحظ شارحا شرف المعنى فى صحيفة بشر إنه (الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال ومايقتضيه المقام). والموضوع الثانى جاء فى (نقد الشعر) لقدامة بن جعفر، قال: «إن المعانى كلها معرضة للشاعر وله أن يتكلم منها فى ما أحب وآثر من غير أن يحظر معنى يروم الكلام فيه». (٢٥)

يفسح هـذا التعريف السمح أمام الأديب حرية التعبير وحرية الانتماء إلى حزب أو مذهب كما يفسح أمام الراوية حرية تغليب جانب على آخر من الجوانب اللغوية أو النفسية أو التاريخية أو الفلسفية أو الاجتماعية، كما تتيح هذه السماحة للأديب والراوية أن يتمثلا عصرهما وبيئتهما، وهذا هو الأساس الذى يرجع إليه اختلاف هذه الاختيارات الأدبية التى عدت أركان الأدب العربى. هذه الحرية تضبطها قيود الصنعة الفنية فقط كما ترى.

الخلاصـة إن نص ابن خلدون المتقدم رصد ظاهرة الاختيارات الأدبية، وأشار إلى نظرية بنيت عليها هذه الاختيارات، ونبه على اقتران إنشاء الأدب بدرسه فى ذهن شيوخ الأدب وهم الرواة علماء صنعة الشعر.

والـذى نـراه إن هذه المدرسة الأدبية بصرية الجذور والثمار. وإذا كان ابن خلدون قد أرجع ضمنا ريادتها لشخص الجاحظ وكتابه البيان والتبيين فلنا رأى خاص يقرن هذه المدرسة بنظرية قامت عليها ويرجع ريادتها إلى أبى عمرو بن العلاء معلم البصريين (توفى حوالى سنة١٥٩هـ) ودليلنا على مانقول مارواه الجاحظ، قال عن أبى عمرو بن العلاء الذى لم يتصل به ولكنه عرفه جيدا من تلاميذه الذين هم شيوخ الجاحظ، وأشهرهم يونس بن حبيب والأصمعى وأبو عبيدة معمر بن المثنى -قال الجاحظ: «...ومن بنى خزاعى بن مازن أبو عمرو وأبو سعيد ابنا العريان. فأما أبو عمرو بن العلاء فكان أعلم الناس بأمور العرب مع صحة سماع وصدق لسان ...حدثنى أبو عبيدة قال: كان أبو عمرو أعلم الناس بالغريب والعربية وبالقرآن والشعر وبأيام العرب وأيام الناس. وكانت داره خلف دار جعفر بن سليمان. قال: وكانت كتبه التى كتب عن العـــرب

الفصحاء قد ملأت بيتا له إلى قريب من السقف، ثم إنه تقرأ فأحرقها كلها. فلما رجع بعد إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ماحفظه بقلبه. وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية.»(٢٦)

لنقف قليلا عند قول أبى عبيدة عن أستاذه إنه تقرأ أى تفقه فى الدين فأحرق كتبه التى كتبها عن أعراب فصحاء أدركوا الجاهلية وإنها كانت ملأت بيتا له إلى قريب من السقف. ماصلة عملية إحراق مسوناته بالتفقه فى الدين؟

تنازعت أبا عمرو بن العلاء دعوتان متقابلتان، دعوة الإسلام ودعوة الجاهلية ممثلة فيما دون من آثار عن أعراب أدركوا الجاهلية فآثر أن يحرق ماخالف الإيمان مخالفة سافرة. وحين رجع بعد إلى علمه الأول روى من الآثار الجاهلية أخفها وطأة وما دعت الضرورة إلى حفظه. وهذا الخبر يرصد ظاهرتين من أهم مايحدد مسار درس أدبنا العربى. الظاهرة الأولى: إن الآثار الجاهلية لم تضع وإنما ضُيِّعَتْ. ومن أراد التماسها فليبحث عنها فى أيام العرب، وفى المعاجم ففى لسان العرب آثار جاهلية كثيرة، وفى المعانى الكبير لابن قتيبة، فالمعانى هى المختار. والمعانى الكبير المختار والمهجور من معانى الأدب.

والظاهرة الثانية إن أبا عمرو بن العلاء استن سنة فى درس الأدب هى الاختيار المبنى على إدراك وظيفة الأدب ورسالته. والاختيار يتضمن الحذف والانتقاء بناء على خطة، ولتحقيق هدف أو عدة أهداف.

واقعة إحـراق أبى عمرو بن العلاء مدوناته الجاهلية على هذه الصورة التى ذكرها أبو عبيدة ورواها الجاحظ بهذه التفاصيل الدقيقة تدل على أنها درس استوعبته جيدا أجيال تلاميذ أبى عمرو بن العلاء وخلاصة الدرس إن المرويات التى تبنى عليها دراسة قواعد اللغة، وأحداث التاريخ، وأصول عقائد الجاهليين ومظاهر سلوكهم كثير منها لا يصلح لمدارسة الأدب. والواجب على رواة الأدب أن يختاروا مايصلح للمدارسة من الآثار الأدبية الجاهلية الزمان وهى التى لايكون المضمون الجاهلى سافرا فى فحشه.

الكـتاب الكريم والسنة الشريفة ينهيان عن ذلك، ووظيفة الأدب أنه دعوة إلى الخير والسلام والحق والجمال تفرض هذا الاختيار من الآثار الجاهلية.

الخلاصـة إن واقعة إحراق أبى عمرو بن العلاء مدوناته الجاهلية، وروايته الآثار الجاهلية المختارة درس استوعبه الأصمعى فى اختيار الأصمعيات واستوعبه الجاحظ وهو تلميذ تلاميذ أبى عمرو بن العلاء، واطردت هذه الظاهرة وصارت نظرية جديرة بالتعريف والتأريخ.

للاختـيارات الأدبية مظهران، أحدهما الاختيار من الشعر فقط وهذا الاختيار يتـصل درسه بالنقد الأدبى وبدرس البديع، وللاختيار من الشعر فقط مجموعاته المشهورة كالأصمعيات والمفضليات واختيارات الحماسة لأبى تمام وللبحترى وغيرها. وهـذه الاختـيارات درسـها الدكتور إحسان عباس فـى كتابـه (تاريخ النقد الأدبى عـند العرب).

كما احتوت تراجم الشعراء على الاختيار الجيد من أشعارهم. وعلى هذه الأسس بنى الثعالبى كتابه (يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر.)

والمظهر الثانـــى للاختيارات الأدبية هو الاختيار من فنون الأدب المختلفة الشعرية والنثرية. وهذا المظهر يعتبر مثله الأعلى كتاب البيان والتبيين للجاحظ، والنظرية فى هذا الاختيار صريحة معلنة فى مقدمات أركان الأدب، خلافا لكتب المختار من الشعر فقط إذ النظرية التى بنى عليها الاختيار غير معلنة تستكشف بالدرس.

لـــم يتتبع الدكتور إحسان عباس هذه الظاهرة من حيث الاختيار من الشعر الجاهلى، مظاهره وأسبابه ومعالمه وأعلامه، وإنما اكتفى برصدها منذ أن وجد الاختيار من شعر المحدثين فى القرن الثالث، فقال فى سياق حديثه عن النقد الضمنى: «رأى بعض المشتغلين بالشعر ممن لايقنون موقف العداء من الشعر المحدث أن يبرزه للناس بعمل مختارات منه، فكانت من ذلك كتب الاختيار التى ظهرت فى ذلك القرن. وهى كتب لاتقوم على أسس نقدية صريحة، بل تعتمد على ذوق صاحبها، وذوقه يرتد إلى (مسبقات) ضمنية توجهه فى أخذ مايثبته وترك ماينفيه، وليس لدينا من هذه الكتب ما يمكننا من استنباط طبيعتها العامة أو صرق أصحابها، فمن ذلك كتاب (البارع) وهو اختيار من شعر المحدثين لأبى عبد الله هارون بن على، وكتاب (اختيار الشعراء الكبير) له أيضا. وقد أتم منه شعر بشار وأبى العتاهية وأبى نواس.

ولأحمد بن أبى طاهر طيفور عدد من كتب الاختيار.... وقد خالف أبو تمام (-٢٣١هـ) فى تأليفه كتاب (الحماسة) هذه الروح المتوجهة نحو الشعر المحدث، لأن ما أورده فى كتابه من شعر المحدثين قليل. ولاريب فى أن موقفه يثير إعجابنا ودهشتنا معا. فهو شاعر ذو طريقة خاصة... وقد دلت مختاراته على أنه يستطيع أن يتجاوز طريقته الشعرية ومافيها من طلب للصور ومن إغراب فى توليد المعانى واستغلال للذكاء الواعى إلى شعر مشمول بالبساطة وشىء غير قليل من العفوية والصدق العاطفى المباشر، ثم أن لايطلب ذلك فيما (ذلله) العلماء من شعر المشهورين. وإنما يعمد -فى الأغلب- إلى أناس مغمورين من شعراء الجاهلية والإسلام. دون مثال يحتذيه سوى الاعتماد على الذوق الذاتى. فإن المفضل الضبى والأصمعى من قبله إنما عمدا فى اختيارهما إلى القصيدة، معتمدين على ماكانت الرواة قد استخرجته ونوهت به من شعر المقلين، فكان أبو تمام بذلك رائدا كثر مقلدوه دون أن يبلغوا شأوه. وقد أتيح له أن يهتدى إلى ابتكار جزئى حين جمع ضروبا من الفنون الشعرية...»(٢٧)

نتفق مع الدكتور إحسان عباس فيما ذهب إليه إن الاختيار درس ضمنى للأدب، وإن الاختيار من الشعر قائم على الذوق الأدبى المدرب برواية الأدب ودراسة الشعر مع علماء صنعة الشعر، وقد تحققت بهذه المدارسة مسبقات ضمنية توجه عملية الاختيار فى إثبات الشعر المختار ونفى الشعر الذى لايرضى عنه ذوق من اختار.

ونختلف معــه فى النتيجة التى أعلنها إن أبا تمام لم يحتذ مثالا سبقه حين خالف أصحاب الاختيارات من شعر المحدثين باختياره من الشعراء الجاهليين ما أودعه فى ديوان الحماسة.

ومــرد الاختلاف بيننا إن الدكتور إحسان عباس لم يدرس قضية الاختيارات من الشعر الجاهلى تاريخيا وإنما قفز إليها من درس اختيارت أبى تمام من الشعر فى كتابه ديوان الحماسة. وأبو تمام توفى سنة ٢٣١هـ. وقبل هذا التاريخ ألفت اختيارات كثيرة من الشعر الجاهلى ولابد أن تتوفر فيها مسبقات ضمنية توجه عملية الاختيار فى الإثبات والنفى.

إن واضــع هذه المسبقات الضمنية معلم البصريين أبو عمرو بن العلاء الذى أحرق مدوناته من الشعر الجاهلى، ثم روى لتلاميذه مارضى عنه، وحذف مالم يرض عنه. وعلى مثاله احتذى تلاميذه من الرواة، فانبعد الأساسى فى عملية اختيار الشعر الجاهلى فهم الرواة المقررات الآتى بيانها: أن الأدب دعوة، وأن الأديب داعية، وأن مكانة الأديب ودارس الأدب هى مكانة الرائد. وأن الرائد ينصح أمته بكل رسالات السماء. وأن فترة الجاهلية لم تخل من مؤمنين بدعوة السماء إلى التوحيد والعدل والسلام والحب والخير، وأن الشعر الذى يستحق الرواية ولمدارسة هو الداعى إلى هذه المعانى من أشعار الجاهليين.

هــذا هو تفسيرنا للمسبقات الضمنية الموجهة عملية لاختيار من الشعر الجاهلى لغرض الحفظ والمذاكرة. ويدل على صحة ماذهبنا إليه وصف الدكتور إحسان عباس اختــيار أبــى تمــام من الشــعر الجاهــلى

إنه شعر (مشمول بالبساطة، وشيء غير قليل من العفوية، والصدق العاطفي المباشر) إنه شعر الهداة المتألهين من الجاهليين. ألا ترى معى إن هذه الأوصاف تنطبق على قول الخنساء فى أخيها صخر:

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار
لم تره جارة يمشى بساحتها لريبة حين يخلى بيته الجار

أما الشعر الجاهلى الزمان والمضمون فيستشهد به عند الحاجة والضرورة للتدليل على قاعدة لغوية أو نحوية أو صرفية أو حقيقة تاريخية أو جغرافية أو على علم العرب المتصل بالنبات أو الحيوان أو الجماد. وليس هناك حظر على الراوية أن يحتوى شاهده من الشعر الجاهلى على مايمس عقيدة الاسلام أو أخلاقه.

ينبغى من خلال هذا التوضيح أن يصحح دارسو الأدب معالجتهم قضية العلاقة بين الشعر والأخلاق، وأن يكفوا عن جلب تصورات الملحدين من الغربيين فى فهم ماهية الشعر ووظيفته، وأن يرجعوا إلى هذا التوضيح جميع مابلغنا عن الأصمعى أن الشعر مجاله الشر يضعف ويتهافت إذا تناول الشاعر موضوعات الخير، وأنه كان يتحرج من تفسير أو رواية أشعار الجاهليين فى الأنواء أو فى موضوع ورد عنه فى القرآن ذكر. لقد كان الأصمعى تلميذا استوعب درس أستاذه أبى عمرو بن العلاء وتحمس له فى التطبيق.

والمظهر الثانى للاختيارات الأدبية هو الاختيار من فنون الأدب المختلفة الشعرية والنثرية وأفضل من أرخ لهذه الظاهرة الأدبية وأبان

خطرها الأستاذ أحمد أمين فى تأريخه علوم الحضارة الإسلامية وتعريفه بالحياة الاجتماعية والثقافات المختلفة فى العصر العباسى، فى كتابه (ضحى الاسلام) الجزء الأول، امتزاج الثقافات فى العصر العباسى الأول. وقام بتحليل كتاب الكامل فى اللغة والأدب لمحمد بن يزيد المبرد واعتبره ممثلا الثقافة العربية الخالصة فى الفصل الرابع من الكتاب.

وحلل كتاب (عيون الأخبار) لابن قتيبة فى الفصل السادس باعتباره مثالا لامتزاج الثقافات فى مجتمع العصر العباسى الأول، وقايس بينه وبين كتاب البيان والتبيين للجاحظ من حيث أوجه الاتفاق وأوجه الاختلاف.

وللأستاذ أحمد أمين جهد بارز فى بلورة نظرية المختارات الأدبية أعلنه فى التقديم الذى حرره لكتاب (العقد الفريد) لأبى عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى، قال الأستاذ أحمد أمين: «مهما اختلفت شخصية المختار وراء ما اختار، فإن هذا المختار يدل على ذوق من اختار وميله وثقافته، ومايحب ومايكره، ومايخفى، ومايظهر، كما يدل على مجونه أو جده، وعلى ضيق أفقه أو سعته.

لقد ألف فى هذا الباب البيان والتبيين، والكامل، والأمالى، وعيون الأخبار، والعقد الفريد، ونحو ذلك كثير. ولكن على الرغم من أنها كتب مختارات فإن لكل كتاب طعما يدل على ذوق صانعه، ولونا يدل على شخصيته مصورة. هذا الجاحظ يدل فى كتابه على استغلاله لتجاربه وظروفه الاجتماعية، وعلى ماللمتكلمين من خصائص فى تفتيق الموضوع وتشقيق الكلام».(٢٨)

فالأستاذ أحمد أمين كما ترى لم يقف عند أربعة الأركان للأدب التى حددها ابن خلدون، فاعتبر كتاب (عيون الأخبار) موازيا فى قيمته لكتاب (أدب الكاتب) وهما لابن قتيبة. واعتبر (العقد الفريد) لابن عبد ربه مساويا لكتاب (الأمالى) لأبى على القالى، وهما أندلسيان. وقال (ونحو ذلك كثير) خلافا لقول ابن خلدون: (وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها).

فأول مايجب تسجيله للأستاذ أحمد أمين إنه رصد الظاهرة، ووسع مجالها، ولم يحصرها فى كتب بذاتها وعدد منها تقتصر عليه.

وثانى مايجب التنويه به إنه طرح عدة أسئلة ولم يقل الكلمة التى قد يتصور إنها الكلمة الأخيرة، وهذا شأن الأستاذ العظيم مع طلابه، قال: «وهناك نواح أخرى لدراسة كتاب البيان والتبيين، كبحث أى مثال احتذى فى تأليفه، والفكرة التى عرضت له فى ترتيبه، ومقدار الثقة به والاعتماد عليه، وشيوخه الذين أخذ عنهم، ومصادر الكتاب. إلى غير ذلك، ولكن موضوع هذا كله البحث الأدبى».[٢٩]

وأذكر إننى كنت أقرأ هذا الكتاب وأنا فى الصف الثانى الثانوى وتحمست للإجابة عن هذه الأسئلة، ثم أنفقت تسع سنوات فى درس الكتاب مع الأستاذ الدكتور طه الحاجرى مجيبا عن أسئلة الأستاذ أحمد أمين.

وثالث مايجب تسجيله للأستاذ أحمد أمين تأكيده إن الجاحظ ابتدع تأليفا جديدا فى الأدب العربى فى كتابيه البيان والتبيين والحيوان وهو

اختياراته من الأدب من آية قرآنية وحديث وشعر وحكمة وخطبة، وقد مزج مختاراته بماله من آراء فى مسائل عدة. وذهب إلى أن المؤلفين من بعده ترسموا خطاه. ورأى الأستاذ إن عيب هذا اللون الجاحظى فى التأليف الاستطراد وإن هذا العيب انتقل إلى كتب المختارات، فى سياق حديثه عن الكتاب: «وفى كل فصل من فصول الكتاب فوضى لاتضبط، واستطراد لايحد. والحق إن الجاحظ مسؤول عن الفوضى التى تسود كتب الأدب العربى، فقد جرت على منواله، وحذت حذوه، فالمبرد تلميذه قد تأثر به فى تأليفه، والكتب التى ألفت بعد كعيون الأخبار والعقد الفريد فيها شىء من روح الجاحظ وإن دخلها شىء من الترتيب والتبويب». (٤٠)

نتفق مع الأستاذ أحمد أمين إن الجاحظ ابتدع لونا من التأليف فى الأدب العربى يتمثل فى اختياراته المتنوعة من القرآن والحديث وفنون الشعر والنثر المختلفة، وإن تلاميذه احتذوا حذوه وإن هذه الظاهرة اطردت فى كل جيل بعده إلى يومنا.

ونختلف مع الأستاذ فى وصفه هذا اللون من التأليف بالفوضى والاستطراد ونفسر هذه الظاهرة باختصار:

ذهب أستاذنا الدكتور الحاجرى فى كتابه (الجاحظ حياته وآثاره) إلى أن الجاحظ بدأ تأليف كتابه الحيوان بعد أن تجاوز الثمانين وأصيب بداءين متقابلين هما الفالج والنقرس، ورحل عن سامراء ولزم داره بالبصرة واستعان على التأليف بمساعدين هم وراق خاص، وعبد، وجارية.

وإن الجاحظ بدأ تأليف كتابه الحيوان، وحين وجد موضوعاته علمية جافة وبالغة الطول احتال ليدفع الملل عن القارئ بفواصل ابتدعها سماها أبواب الحفظ والمذاكرة وهى متنوعة الموضوعات وتشمل آثارا من القرآن والحديث والشعر والنثر وتحتوى على طرائف ونوادر، وكان يعود بعد الفراغ منها إلى موضوعه الأصلى فى الحيوان.

وقد كان تلاميذه، الذين صاروا فى وقت تأليفه كتابه الحيوان أصحابه، يزورونه ويطلعون من الوراق على ما أملاه الجاحظ عليه، فاستحسنوا هذه الأبواب المختارة من الرواية وطلبوا منه أن يتفرغ للتأليف فيها، فاستجاب لهم وبدأ فى تأليف كتابه البيان والتبيين، وترك كتابه الحيوان إلى أن انتهى من كتابه البيان والتبيين ثم أتم كتابه الحيوان.(٤١)

ونضيف إن شخصية الجاحظ ذات جوانب متعددة. فهو أديب يتمتع بأسلوب فريد متميز، وهو مفكر حر وعلم من أعلام المعتزلة له آراء انفرد بها جمعت حوله بعض الأنصار من المعتزلة عرفوا بالجاحظية، وهو مؤسس البلاغة العربية، وهو راوية يجيد فن الرواية التقليدية (رواية الشاهد والمثل)، وهو مبتكر الرواية المعينة على الاكتساب أى المساعدة على تنمية المواهب الأدبية بالدرس والتى سماها (أبواب الحفظ والمذاكرة).

جاء إبداع الجاحظ هذا اللون من الرواية الأدبية بعد أن عزف عن الخوض فى مسألة خلق القرآن وكرر فى كتابيه الحيوان والبيان والتبيين إنه يتجه إلى جماعة المسلمين. وبعد أن أعلن إن غايته من رواية الأشعار

تربية الذوق الأدبى بتعريف المتأدبين روائع الشعر والنثر ليحتذوا الأساليب والصور البيانية والتعبيرية، لهذا لم يقف عند العرب والأعراب، بل اختار كثيرا من أشعار المولدين والبلديين والموالى والعبيد. وتدور فى مروياته أسماء كثيرة لشعراء تتباين مذاهبهم ومراتبهم. وكان التفاضل بينهم عنده أساسه الجودة الفنية. وقد بلغت الجرأة به أن أعلن إعجابه بأبى نواس فى معنى شعرى، وهو مولد، وفضله على أحد الجاهليين، قال: «...وأبيات أبى نواس على أنه مولد شاطر، أشعر من شعر مهلهل فى إطراق الناس فى مجلس كليب، وهو قوله:

على خبز إسماعيل واقية البخل .. وقد حل فى دار الأمان من الأكل».(٤٢)

وللجاحظ منهج فى درس الأخبار أعلنه فى كتابه (الحجة) لم يقف فيه عند نقد الأثر كما كان يصنع رجال الحديث وإنما عمم بحيث يطبق منهجه على أمور الدين وغيرها من أمور الدنيا وطبق منهجه على نقد أخبار التاريخ ونصوص الأدب.(٤٣) ويرجع سبب تعميمه أن موضوع كتاب (الحجة) آداب السلوك، وقد أهداه إلى من تولى قضاء بغداد والأعمال.

كما كانت للجاحظ عناية بالحديث الشريف فقد رواه فى سياقين، أحدهما رواية آثار مختارة من الشعر والنثر، والثانى سياق الخصومة فى قضية كلامية أو بيانية.

أمـا السياق الأول فقد اتخذ فيه موقفا واضحا يختلف عن منهج أصحاب الحديث من حيث الشروط القاسية فى القبول والرفض، فقد كان ينظر فى أغلب الأحيان إلى الاعتـبار البديعى كقولـه: «...وسنذكر من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، مما لم يسبقه إليه عربى، ولاشاركه فيه أعجمى، ولم يدع لأحد، ولا ادعاه أحد، مما صار مستعملا ومثلا سائرا. فمن ذلك قوله (ياخيل الله إركبى)، وقوله (مات[٤٤] حتف أنفه)». كما اختصر السند، وأحيانا أسند الحديث إلى صحابى أخذ عنه البصريون. وهو بهذا السلوك ليس من أصحاب الحديث الذين يعتمد عليهم الفقهاء فى الفتيا. ولم نجد رجال الحديث قد وضعوه بين رجال الحديث العدول. فعدالته مشكوك فيها لدى المحدثين، ولذلك جاءت رتبته بين رواة الحديث متأخرة. وعندنا إن هذا الحكم يمكن استئنافه وإثبات عدالة الجاحظ بالعديد من الأسانيد العلمية.

أمـا روايته الحديث التى جاءت فى سياق الخصومة حول قضية من قضايا البلاغة، فمنها هذه المناظرة التى أوردها واتخذ فيها موقف المدافع عن البيان، وموضوعها التفضيل بين الايجاز والإطناب، وكانت الخصومة بين أصحاب الحديث والمعتزلة دائرة حول تفسير حديث الرسول عليه الصلاة والسلام: (إنا معاشر الأنبياء بكاء)، قال: «وقد روى الأصمعى وابن الأعرابى عن رجالهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إنا معاشر الأنبياء بكاء) فقال: البكء: القلة، وأصل ذلك من اللبن. فقد جعل صفة الأنبياء قلة الكلام، ولم يجعله من إيثار الصمت. ومن التحصيل وقلة

الفضول». ثم اتجه الجاحظ إلى متن الحديث مخالفا أصحاب الحديث فى تفسيره، قال: «قلنا ليس فى ظاهر هذا الكلام دليل على أن القلة عجز فى الخلقة، وقد يحتمل ظاهر الكلام الوجهين معا. وقد يكون القليل من اللفظ يأتى على الكثير من المعانى.

والقلة تكون من وجهين: أحدهما من جهة التحصيل والإشفاق من التكلف..وتكون من جهة العجز ونقصان الآلة وقلة الخاطرة وسوء الاهتداء إلى جياد المعانى والجهل بمحاسن الألفاظ... فلو كانت تلك القلة من عجز كان النبى صلى الله عليه وسلم أحق بمسألة إطلاق تلك العقدة من موسى، لأن العرب أشد فخرا ببيانها وطول ألسنتها.»(٤٦)

إن تفسيرنا لاختصار الجاحظ أسانيد أحاديث الرسول التى رواها، وعزوفه عن نقدها يرجع إلى أنه كان يقدر الحد الفاصل بين لعلم والأدب، فلم ير من المناسب أن يعرض على قرائه بحثا دقيقا فى نقد الرجال، فاستخدم نقد المتن لأنه أكثر جدوى وأنسب بكتاب فى رواية الأدب ودرسه.

إن هذه النصوص تعطينا صورة شديدة الوضوح عن مرويات الجاحظ، دلالتها ووظيفتها، وعلاقتها بمفهوم الأدب وقضايا درسه فقس عليها. وهى تكفى فى الدلالة على أن كتاب البيان والتبيين كتاب رواية، والرواية جانب من شخصية الجاحظ درسه قبلنا الدكتور طه الحاجرى فى تحقيقه كتاب (البخلاء) وفى كتابه (الجاحظ حياته وآثاره)، ونص عليه العلامة عبد السلام هارون فى تحقيقه كتاب (العثمانية) للجاحظ.

والعلامة عبد السلام هارون، كما تعرف، محقق حجة له عناية خاصة بتحقيق مكتبة الجاحظ، وكان سعيدا بتقديمه كتاب (العثمانية) أنه يقدم لقراء العربية كتابا كبيرا من تأليف الجاحظ يحمل خصائص فكره وسمات أسلوبه.[٤٧] فالعلامة عبد السلام هارون فرق بين كتب الجاحظ التى قام فيها بدور الراوية، وكتبه التى ألفها فى قضايا عصره وتحمل خصائص فكره وسمات أسلوبه.

وقد نبه الدكتور طه الحاجرى إلى هذه القضية فى تحقيقه كتاب (البخلاء) للجاحظ، فأشار فى مقدمة التحقيق إلى أن الرواية فن اضطلع به الجاحظ، قال: «كان الجاحظ إماما من أئمة الكلام، وزعيما من زعماء المعتزلة، وصاحب نحلة من نحلهم، وكان عالما محيطا بمعارف عصره، لايكاد يفوته شىء منها، سواء فى ذلك أصيلها ودخيلها، وسواء منها ماكان إلى العلم والتحقيق، وماكان إلى الأخبار والأساطير، وكان راوية من رواة اللغة وآدابها وأخبارها، غابرها ومعاصرها، واسع الرواية، دقيق المعرفة، قوى الملكة فى نقد الآثار وتمييزها»[٤٨].

وفى سياق تعقيبه على رسالة سهل بن هارون أهى لسهل أم للجاحظ؟ قال الدكتور الحاجرى: «أما أن الأصل فى هذه الرسالة أنها صحيحة النسبة فمسألة فيها نظر، فتقرير هذا موقوف على تقرير الأصل فى الجاحظ. الأصل فيه أنه راوية ثقة أمين، أم الأصل فيه أنه أديب مبدع متفنن؟ وقد لانصل فى هذا إلى جواب واحد، فالجاحظ راوية لاشك فى ذلك، والجاحظ أديب منشئ لاشك فى ذلك أيضا. وقد يكون هذا كافيا لإسقاط الأصل المزعوم وتبقى المسألة بعد ذلك فى وضع متساوى الطرفين.

فلنضـيق من دائرة السؤال قليلا، ولنحصر الجاحظ فى كتاب البخلاء: ما الأصل فيه؟ أهو كتاب آثار تظهر فيه سعة رواية الجاحظ وقوة حفظه وقدرته على استحضار الأشباه والنظائر ككتاب البيان والتبيين، أم هو كتاب فن وأدب ومظهر لعبقرية الجاحظ الفنية التى لانكران لها، والتى تأبى إلا أن تولد وتبدع وتبتكر؟»(٤٩)

فهذان العالمان المتخصصان قد صرحا أن كتاب البيان والتبيين كتاب رواية لايحمل سمات أسلوب الجاحظ ومنهجه فى التفكير إلا إذا بحثت عن آرائه بين مروياته ودرست كيف وظف مروياته، وعلى أى أساس تخيرها... وقد سبقهما الدكتور طه حسين فى بحثه الذى ألقاه بالفرنسية أمام بعض مؤتمرات المستشرقين وترجمه الدكتور عبد الحميد العبادى إلى العربية وعنوان البحث (البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر الجرجانى) والشاهد فى هذا البحث إن الدكتور طه حسين ضمن بحثه ولم يصرح -إن الكتاب كتاب رواية. لهذا السبب لم يذكر الدكتور طه حسين فى بحثه عن الكتاب شيئا يتصل من قريب أو بعيد بأسلوب الجاحظ.

جدوى استكشاف نظرية الاختيارات الأدبية:

المألوف عن دراسة الجدوى أنها دراسة متصلة بالمال والاستثمار فى مجالات مادية، وعندنا إنها دراسة لاتقتصر على المادة والمال، فالجدوى من ريادة صحيحة لأديب كبير مخلص تحقق عائدا لايقدر بمال، وتحقق البيئة الصالحة للاستثمار المادى. من الشواهد على هذه المقولة دور الجاحظ فى تحقيق السلام الاجتماعى فى المجتمع العباسى فى القرن الثالث الهجرى.(٥٠)

وموجز بحثنا إن الجاحظ منذ اتصاله بالخليفة المأمون فى مرو فى أعقاب فتنة الأمين والمأمون وقد أشاد الخليفة المأمون بمؤلفات الجاحظ فى الإمامة. ولمدة امتدت مايقرب من نصف قرن بعد هذا اللقاء -والجاحظ يعمل مستشارا للخلافة العباسية وظيفته إعلامية، تعالج أدواء المجتمع قبل أن تستفحل. وليس من قبيل الصدف أن تطل الفتنة سنة وفاته بما عرف بثورة الزنج، وقد اكتشف المؤرخ محمد بن جرير الطبرى بعد أن رصد أحداثها أنه لامنطق لتلك الأحداث فغير العنوان من (ثورة الزنج) إلى (زنج الخبيث).

إن تلك المحنة التى نزلت بأجزاء كثيرة من جنوب العراق ونال البصرة منها البلاء الأكبر وامتدت آثارها إلى بلاد كثيرة منها الأهواز وعبادان، وقتل فيها خلق كثير واستمرت أربعة عشر عاما من ٢٥٥ إلى ٢٦٩ هجرية،[٥١]لقد نبه إليها الجاحظ فى كتاباته عن الأعراب وعن السودان وعن الجاهلية. وقد كانت له عناية بالعوام والأعراب درسناها فى رسالتنا الجامعية الأولى. وأشار المستشرق الفرنسى شارل بلا إلى أن الجاحظ توقع ثورة الزنج قبل وفاته.[٥٢]ونذهب إلى أبعد من هذا فنقول إن وفاة الجاحظ كانت إشارة البدء للمخططين لتلك الأحداث الجسام، يكفى أن تقرأ فى تاريخ الرسل والملوك لمحمد بن جرير الطبرى أحداث تلك السنوات لتدرك أن وراء تلك الأحداث محركين هم نفس المحركين لأحداث الإرهاب فى عصرنا. نختار لك فقرتين للتدليل على مانقول. (الفقرة الأولى):

قال المؤرخ محمد بن جرير الطبرى فى أحداث سنة٢٥٥هـ جـ٩ص٤١٠ من كتابه تاريخ الرسل والملوك: (خروج أول علوى بالبصرة):

«وللنصف من شوال من هذه السنة، ظهر فى فرات البصرة رجل زعم أنه على بن محمد بن أحمد بن على بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، وجمع إليه الزنج الذين كانوا يكسحون السباخ، ثم عبر دجلة فنزل الدينارى...

(والفقرة الثانية): من نفس المصدر والجزء ص ٤٢٠ :

قال: «وسار حتى أتى نهرا يعرف بباقثان فنزل خارجا من القرية التى على النهر وهى قرية تشرع على دجيل، فأتاه أهل الكرخ... وجاءه رجل يهودى خيبرى يقال له ماندويه فقبل يده، وسجد له -زعم- شكرا لرؤيته إياه، ثم سأله عن مسائل كثيرة، فأجابه عنها، فزعم أنه يجد صفته فى التوراة، وأنه يرى القتال معه، وسأله عن علامات فى بدنه ذكر أنه عرفه بها، فأقام معه ليلته تلك يحادثه.»

● إن إنكار النسب الحقيقى، وادعاء النسب الشريف، والسلوك الجاهلى المنافى لسلوك أصحاب النسب الشريف، والعلاقات المشبوهة بذلك الصهيونى الخيبرى ماندويه، والعلاقات السرية المشبوهة بآخرين، والتاريخ الحافل بالأكاذيب وتحريض الناس فى بقاع مختلفة من

البادية والحاضرة.. كل هذا محتاج إلى قلم كاتب يثق فيه الناس، يبصرهم بالخطر الذى يستفحل ضرره والمواجهة السريعة الحاسمة. إن العراق كان محتاجا إلى تعبئة، وقد مات من كانت وظيفته التعبئة المعنوية، فليحرك الصهيونيون والشعوبيون أتباع مانى رجالهم قبل أن يظهر جاحظ جديد.

فالجـدوى من الأديب الكبير والأدب الصحيح هى تحقيق السلام الاجتماعى. وقد رأيت أن الأستاذ أحمد أمين عد كتاب البيان والتبيين ممثلا لظاهرة امتزاج الثقافات فى المجتمع العباسى فى القرن الثالث، وهى شهادة تؤيد مانذهب إليه فامتزاج الثقافات تحقيق للسلام الاجتماعى. وقد رأيت إن ثورة الزنج ودور الخبيث هو تدمير السلام الاجتماعى، لقد غاب الكاتب الذى تقرأ له كل فئات الشعب.

● المظهر الثانى لجدوى استكشاف نظرية المختارات الأدبية ضرورة استئناف حكم أصدره الأستاذ أحمد أمين وتابعه فيه د.شوقى ضيف فى كتابه (الفن ومذاهبه فى النثر العربى) وتابعهما آخرون مؤداه إن الاستطراد ظاهرة عمت أدب الجاحظ وإنه كاتب لامنهج له وذلك راجع لثقافته الموسوعية، وإن الفوضى التى عمت كتب الأدب العربى سببها الجاحظ وكتابه البيان والتبيين الذى احتذاه المؤلفون فى الأدب من بعده. لقد كانوا جميعا يرددون عبارة المستشرق (كارادى فو) فى كتابه عن مفكرى الاسلام، حين قال: «إن الموضوع عند الجاحظ ليس إلا وسيلة للاستطراد.»(٥٢)

القاعدة القانونية تقول مابنى على خطأ فهو خطأ. لقد أصدروا هذا الحكم على كتاب ليس من تأليف الجاحظ ولايشكل أسلوب الجاحظ فيه نسبة تذكر، فهو كتاب مرويات أدبية يقدم لها الجاحظ ويعقب عليها. وأسلوب الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين متمثل فى باب البيان وفى صحيفة بشر بن المعتمر وليس فيهما استطراد؟!

كان الأجدر بالأستاذ أحمد أمين والدكتور شوقى ضيف أن يراجعا ماذهب إليه (كارادى فو) مع علماء أعرف منه بالجاحظ وبالأدب العربى، أولهم الدكتورطه حسين فى بحثه (البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر الجرجانى) لم يشر فيه من قريب أو من بعيد إلى أسلوب الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين وإنما اعتبر الكتاب كتاب رواية وضع الجاحظ فيه بالرواية والرأى الأساس للبلاغة العربية.

وكان الأجدر بهما أن يسترشدا برأى الأستاذ أمين الخولى وبخاصة فى بحثه الذى ألقاه بالجامعة المصرية فى الاحتفال بأسبوع الجحظ بمناسبة مرور أحد عشر قرنا على وفاته. وبدأ الاحتفال فى يوم ١٩٣٧/٣/٢٥. وكان بحث الأستاذ أمين الخولى الذى شرح فيه منهج الجاحظ فى رواية الأدب بعنوان (منهج تفكير الجاحظ).

لقد وعدت الجامعة باصدار كتاب يحتوى على نصوص المحاضرات ولسبب ما لم تنفذ الجامعة ماوعدت به. وقد غطى الصحافى الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف هذا القصور بالملخصات الوافية للمحاضرات التى نشرتها عنه مجلة الرسالة. ونشهد له -رحمه الله- بالأمانة والدقة،

فالملخص المنشور عن محاضرة الأستاذ أمين الخولى أعطى تصورا واضحا لمضمون المحاضرة[٥٤] التى نشرها بعد ذلك الأستاذ أمين الخولى فى كتابه (مناهج تجديد فى النحو والبلاغة والتفسير والأدب)[٥٥]

● والمظهر الثالث لجدوى استكشاف نظرية المختارات الأدبية أننا أثبتنا إن المدرسة الأدبية فى الدرس البلاغى كانت أمينة فى رصد الظواهر الأدبية ونسبة كل رأى إلى صاحبه بحيث يستطيع الباحث فى يسر أن يدرك مبلغ التطور فى درس الأدب، ودور كل راوية من علماء صنعة الشعر وعطاءه واتجاهه الذى ميزه عن غيره.

المدرسة هى فكر أستاذ نهض به تلاميذه، وقد عاد الأستاذ من بغداد وسامراء ولزم داره بالبصرة، وصار تلاميذه أصحابه الذين يزورونه لعيادته، ولمدارسة الأدب معه، فهو شيخ الأدباء، وله حق الوفاء، وهم الذين اقترحوا عليه أن يترك التأليف فى كتابه الحيوان وأن يختار لهم من أبواب الحفظ والمذاكرة مايعد منهجا دراسيا للمتأدبين، وقد استجاب لهم وأكثر من الاختيار من مدونات الشباب التى جمعها مع صديق صباه الحسن بن هانىء، فالشيخ يستعيد ذكريات الصبا والشباب بوضوح ينسى أحداث أمسه.

ولكى نثبت لك أننا بصدد نظرية قامت عليها مدرسة، نقدم لك شهادتى تلميذى الجاحظ اللذين صنعا مثل صنيعه. أونهما أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبه الدينورى (٢١٣-٢٧٦هـ) لقد كان الخلاف بينهما

واضحا حين كان الجاحظ صاحب نحلة من نحل المعتزلة وكان ابن قتيبة فقيها صاحب سنة، وقد عبر ابن قتيبة عن خلافه مع الجاحظ فى كتابه (تأويل مشكل الحديث) تعبيرا حادا. أما وقد أعلن الجاحظ قبيل رحيله عن بغداد وسامراء عائدا إلى البصرة أن كتبه إسلامية جماعية فيها من القرآن والسنة والفقه مختارات. كما فيها من حقائق العلوم ومن أبواب الحكمة ومن النوادر ومن طرف الكلام والفلسفة فقرات -فقد زال ماكان يحول بين اتصالهما الفكرى والوجدانى، وصرنا نجد فى كتابى ابن قتيبة (أدب الكاتب) و(عيون الأخبار) مايثبت أن ابن قتيبة تلميذ نهض بفكر أستاذه.

تشهد على مانقول عبارات ابن قتيبة فى مقدمة كتابه (عيون الأخبار) مشيرا إلى كتابه (أدب الكاتب) وهما من المختارات، قال ابن قتيبة: «إنى كنت تكلفت لمغفل الكتاب كتابا فى المعرفة وفى تقويم اللسان واليد حين تبينت شمول النقص ودروس العلم وشغل السلطان عن إقامة سوق الأدب حتى عفا ودرس... وعملت له فى ذلك عمل من طلب لمن حب، بل عمل الوالد الشفيق للولد البر، ورضيت منه بعاجل الشكر وعولت على الله فى الجزاء والأجر....

وهذه (عيون الأخبار) نظمتها لمغفل التأدب تبصرة، ولأهل العلم تذكرة، ولسانس الناس ومسوسهم مؤدبا، وللملوك مستراحا من كد الجد والتعب. وصنفتها أبوابا وقرنت الباب بشكله، والخبر بمثله، والكلمة بأختها ليسهل على المتعلم علمها وعلى الدارس حفظها وعلى الناشر طلبها، وهى لقاح عقول العلماء، ونتاج أفكار الحكماء، وزبدة المخض، وحلية الأدب، وأثمار طول النظر والمتخير من كلام البلغاء وفطن الشعراء وسير الملوك وآثار السلف.

جمعت لك منها فى هـذا الكتاب لتأخذ نفسك بأحسنها وتقومها بثقافها وتخلصها من مساوى الأخلاق كما تخلص الفضة البيضاء من خبثها.. ولم أر صوابا أن يكون كتابى هذا وقفا على طالب الدنيا دون طالب الآخرة، ولا على خواص الناس دون عوامهم، ولا على ملوكهم دون سوقتهم، فوفيت كل فريق منهم قسمه ووفرت عليه سهمه، وأودعته طرفا من محاسن كلام الزهاد فى الدنيا، وذكر فجائعها والزوال والانتقال، ومايتلاقون إذا اجتمعوا ويتكاتبون به إذا افترقوا فى المواعظ والزهد والصبر والتقوى واليقين وأشباه ذلك... ولم أخله مع ذلك من نادرة طريفة وفطنة لطيفة وكلمة معجبة وأخرى مضحكة لئلا يخرج عن الكتاب مذهب سلكه السالكون وعروض أخذ فيها القائلون، ولأروح بذلك عن القارئ من كد الجد وإتعاب الحق..»(٥٦)

رأيـــت أن ابن خلدون عد كتاب (أدب الكاتب) أحد أركان الأدب الأربعة، ورأيت أن الأستاذ أحمد أمين عد كتاب (عيون الأخبار) ممثلا امتزاج الثقافات فى العصر العباسى الأول وأنه يشبه كتاب البيان والتبيين فى القيام بهذا الدور. فى الفصل السادس من الجزء الأول من كتابه ضحى الاسلام. وابن قتيبه نفسه يوافق ماذهب إليه ابن خلدون وأحمد امين باعلانه فى مقدمة عيون الأخبار إنه صنع كتابيه على سبيل الاختـــيارات الأدبية، ويقصد أثر مدارسة الآثار الأدبية فى تقويم اللسان فى فنون الخطابة والمناظرة وإلقاء الشعر، وأثرها فى تقويم اليد فى صنعة الكتابة بفنونها الديوانية والانشائية.

وقد عد هـذا التأليف صنيعا من قبيل بر الوالد الشفيق بولده، لايـتغى من ورائه غير وجه الله. وقال إن مادعاه إلى تأليف (أدب الكاتب) مامسه من حاجة الكتاب إلى كتاب يداوى النقص الظاهر فى العاملين بصناعة الكتابة فى عصره. ونذكر بأن هذه الطائفة درست من آثار اليونان والفرس أكثر ممادرست من التراث العربى، فاستدرك ابن قتيبه بكتابه (أدب الكاتب) النقص البادى فى طائفة الكتاب يدها ولسانها.

وقـرر ابن قتيبة إن (عيون الأخبار) كتاب مختارات يكمل (أدب الكاتب) ويتفوق عليه، فإذا كان (أدب الكاتب) يخص طائفة الكتاب، فعيون الأخبار تعم الحاجة إليه من كل طالبى الأدب، فهو للمتأدب تبصرة، ولأهل العلم بصنعة الشعر تذكرة، يحتاج إليه صاحب السلطان كما يحتاج إليه المحكوم، ويطلبه الملوك حين يستريحون من أعباء الملك، وابن قتيبة يشير بهذا إلى ضرورة الأدب فى كل مناحى النشاط فى المجتمع وإلى وظيفة الأدب الاجتماعية.

وأشـار ابن قتيبة إلى أن حرصه على تبويب كتابه (عيون الأخبار) يماثل حرصه على اختيار نصوصه بحيث تكون رفيعة القيمة من حيث اللغة والمعنى والجمال الفنى، كما أكد فى عبارات كثيرة إن اختياراته إيمانية وليست جاهلية.

وليس فى مقدمـة (عيون الأخبار) أدل على التواصل والتود بين الجاحظ وابن قتيبة من الفقرة الأخيرة (ولـم أخله مـع ذلك مـن نادرة

طريفة وفطنة لطيفة...) فقد أعلن بذلك اتفاقه مع ماسبق أن أعلنه الجاحظ فى الحيوان والبيان والتبيين إنه يمزج الجد بالهزل طلبا للترويح عن القارئ، ورغبة فى دفع الملل عن نفسه. وكانت إشارة ابن قتيبة فى قوله: «لئلا يخرج الكتاب عن مذهب سلكه السالكون» أشبه بالتصريح باسم الأستاذ أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ.

الكامل فى اللغة والأدب للمبرد

محمد بن يزيد المبرد (٢١٠ - ٢٨٥هـ) أسبق من ابن قتيبة ميلادا، وابن قتيبة أسبق من المبرد وفاة. وكان المبرد أكثر اتصالا وأدوم مودة بالجاحظ من ابن قتيبة لأن البصرة جمعت بين الجاحظ والمبرد أما ابن قتيبة فقد انعقدت صلته بالجاحظ فى بغداد.

عرف الجاحظ بالاعتزال، وعرف ابن قتيبة بالفقه، وعرف المبرد باللغة. ولكن الأدب جمعهم، وحب الأجيال القابلة من المتأدبين وحد بينهم فى العمل فأعد كل منهم للأجيال اللاحقة كتابا.

كان الجاحظ إفريقى النسب وكان ابن قتيبة فارسى النسب، وكان المبرد عربيا من قحطان. ولكن الولاء للاسلام وللعروبة وحد بينهم، فصدرت عنه اختياراتهم، ونفت عن الأدب المضمون الجاهلى، وتميز كل اختيار من اختياراتهم بلون وطعم يفرده عن المؤلفات الأخرى. فالاختيارات الأدبية تجمعها خصائص مشتركة وهدف واحد. وينفرد كل منها بما يوافق اهتمام مؤلفه العلمى وذوقه الأدبى ورؤيته لقضايا عصره.

قال المبرد فى التعريف بكتابه: «هذا كتاب ألفناه يجمع ضروبا من الآداب مابين كـــلام منـــثور وشعر مرصوف، ومثل سائر وموعظة بالغة، واختيار من خطبة شريفة، ورسالة بليغة، والنية أن نفسر كل ماوقع فى هذا الكتاب من كلام غريب، أو معنى مستغلق. وأن نشرح مايعرض فيه من الإعراب شرحا شافيا حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفيا، وعن أن يرجع إلى أحد فى تفسيره مستغنيا.»(٥٧)

فقاعدة الاختيار عند كل شيخ من شيوخ الأدباء صحة الولاء لهذا الدين الذى وحد بين الأجناس فلا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى،

* والصدور عن الحب لكل الناس، الأسلاف والأحفاد.
* وأن يمثل الاختيار الأنواع الأدبية من خطبة وقصيدة ورسالة ومثل وموعظة...
* كما يمثل الاختيار أغراض الأدب المختلفة من مدح وهجاء ووصف ونسيب وفخر...
* والمقدم فى الاختيار آثار الكتاب والسنة والسلف أى الأدب الذى حقق البطولات فى مجالاتها المختلفة وعبر عن نفسه بعبارات بليغة...
* والمعانى الإيمانية شرط متضمن فى الاختيار، وتقابل بالمعانى الجاهلية لتتحقق الفائدة، وكان المبرد فى كامله أحرص شيوخ الأدباء على التأكيد على هذه المقابلة.
* والأديب صاحب الاختيار يقدم للنصوص المختارة، ويعقب عليها، ويربط بينها بما يحقق الإفادة التعليمية والتربوية من الاختيار، فأدب الدرس لايتنافى مع أدب السلوك.

* الكمال فى نظر المبرد يتضمن الصناعة، ويتحقق فى صحة العربية وجمالها، فلا غرابة فى تغليبه اتجانب اللغوى على اختياراته الأدبية وشروحه لها، فالأدب فن أداته اللغة.

تخرج من درس الكامل بانطباع مؤداه أن المبرد يعتبر الأدب ضرورة من ضرورات الحياة كالخبز يحتاجه الغنى والفقير والصغير والكبير، ويرى إنه يحقق لمتناوله الحيوية، كالوجبة الغذائية التى تتحول بعد هضمها وتمثل الجسم لها إلى قطرات فى الدم يترتب عليها الحركة والتفكير. كذلك الأديب يثرى اللغة بنتاجه الأدبى الذى يجدد خلاياها ويحقق لها الحيوية فتفى بمتطلبات الحياة المتجددة.

حللنا مقدمة الكامل للمبرد تحليلا يخص النص ويعم كتب الاختيارات الأدبية لتتيقن أننا بإزاء مدرسة لها تقاليدها المقررة فى درس الأدب من خلال اختيار نصوص من الشعر والنثر وتوجيهها.

تتبع المبرد تطور الدلالات فى اختياراته، وقد بدأها بقول الرسول عليه الصلاة والسلام للأنصار فى كلام جرى: «إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عن الطمع» فقال: الفزع فى كلام العرب على وجهين: أحدهما ماتستعمله العامة تريد به الذعر، والآخر: الاستنجاد والاستصراخ من ذلك قول سلامة بن جندل:

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع .. كان الصراخ له قرع الظنابيب

يقول: إذا أتانا مستغيث كانت إغاثته الجد فى نصرته... قال جرير:

فقلت لكأس ألجميها فإنما .. حللت الكثيب من زرود لأفزعا

يقول لأغيث، وكأس اسم جارية وإنما أمرها بالجام فرسه ليغيث.»[٥٨]

المبرد حريص فى الكتاب كله على بحث التطور الدلالى ولكنه لم يعن -كما أشار عبد القاهر الجرجانى- إلى الجهة التى جاء منها المجاز.

وقد حرص فى اختياراته على أن تكون فى مناسبات جليلة، وأن تكون صادرة عن ذى شأن عظيم، وأن تكون عظيمة الخطر فى حياة الأمة وفى الدرس البلاغى، كالحوار الذى دار بين عبد الرحمن بن عوف وأبى بكر الصديق رضى الله عنه فى علته التى مات فيها، وقد رواه وشرحه ثم ذكر عهده عند موته: وهو:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ماعاهدبه أبو بكر خليفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة فى الحال التى يؤمن فيها الكافر، ويتقى فيها الفاجر. إنى استعملت عليكم عمر بن الخطاب. فإن بر وعدل فذلك علمى به ورأيى فيه. وإن جار وبدل فلا علم لى بالغيب والخير أردت، ولكل امرئ مما اكتسب، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون[٥٩]».

وأردف ذلك برسالة عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى فى القضاء[٦٠]. وقد شرحها المبرد. وأردف هذه الاختيارات بكتاب عثمان بن عفان إلى على بن أبى طالب -رضى الله عنهما- حين أحيط به[٦١]. وشرح الكتاب. ثم اختار خطبة على بن أبى طالب رضى الله عنه حين انتهى إليه أن خيلا لمعاوية وردت الأنبار فقتلوا عاملا له يقال له حسان بن حسان، فخرج مغضبا يجر ثوبه حتى أتى النخيلة وأتبعه الناس، فرقى رباوة من الأرض. وروى المبرد نص الخطبة وشرحها[٦٢]. وبهذا ينتهى استهلال المبرد كتابه الكامل.

ويليه باب فى البيان يستهله بهذه العبارة:

«قال أبو العباس: من كلام العرب الاختصار المفهم والإطناب المفخم، وقد يقع الإيماء إلى الشئ فيغنى عند ذوى الألباب عن كشفه، كما قيل: لمحة دالة.»(٦٢)

عبارة المبرد تعنى أن الايجاز قسيم الإطناب والإيماء قسيم التصريح وهذه العبارة إشارة إلى أن دراسة كتاب الكامل فى اللغة والأدب لايكتفى فيها بدراسة ظاهر النص بل ينبغى أن يستشف الدارس إلى أى شىء يشير المؤلف. والسياق الذى ألف الكتاب فى أثنائه دمرت فيه البصرة وقتل أستاذه العباس بن الفرج الرياشى تلميذ الأصمعى وهو يصلى فى خصه والكتاب يؤكد من خلال النصوص المختارة على عدة قضايا:

* **الحد والحب** ويذهب إلى أن ولى الأمر ينبغى عليه أن يقيم الحد على من يحب حتى يتحقق الأمن للحاكم والمحكوم، وهذه القضية صدى للإرهاب الذى مارسه الخبيث قائد ثورة الزنج.

* **الخوارج** والكتاب أفضل مصدر لدرس الخوارج، عقيدتهم وفرقهم وأدبهم وتاريخهم، وقد أعطى عناية خاصة للمهلب بن أبى صفرة الذى استأصلهم من المشرق فرحلت فلولهم إلى المغرب. لقد ربط المبرد بين كل الظواهر الخارجية وأشار إلى محركين من المجوس المتسترين بالاسلام الصهيونيين الخارجين على شريعة موسى عليه السلام من خلال روايات عليك أن تلتقطها إن فهمت الإشارة. لاتنس أن الخبيث كان يعيث فى البصرة وماحولها فسادا، والقتلى بالآلاف وانتهاك الأعراض وانتهاب الأموال، واشتعال الحرائق من الأخبار التى تتردد كل يوم وكل ساعة. هل تطلب منه التصريح فى هذا الجو؟!

لقد قـارن بين الجاهلية والإيمان كثيرا وبخاصة الجاهلية فى شعر الفرزدق، وأفاض فى الحديث عن بطولة المهلب بن أبى صفرة، كما أفاض فى الحديث عن الخوارج، وعقد لدرس التشبيه عدة أبواب، وحدثنا كثيرا عن الحد والحب، وذهب إلى أن إقامة الحد على القاتل واجبة على ولى الأمر وبخاصة على من أحب. ألا تدل هذه الموضوعات عندك على ماأشار إليه المبرد بهذه العبارة: «وقد يقع الإيماء إلى الشىء فيغنى عند ذوى الألباب عن كشفه، كما قيل: لمحة دالة.»؟!

الأمالى لأبى على القالى:

أما الاختيار الأندلسى من أركان الأدب فهو (الأمالى) لأبى على إسماعيل بن القاسم البغدادى النشأة القرطبى الوفاة (٢٨٨ - ٣٥٦هـ) وقد استهل كتابه بما يفيد أننا بإزاء مدرسة وضع أساسها أبو عمرو بن العلاء ووضع نظريتها أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. قال أبو على القالى فى مقدمة الأمالى مفسرا ماذهبنا إليه:

«لما رأيت العلم أنفس بضاعة، وأيقنت أن طلبه أفضل تجارة فاغتربت للرواية، ولزمت العلماء للدراية، ثم أعملت نفسى فى جمعه وشغلت ذهنى بحفظه، حتى حويت خطيره، وأحرزت رفيعه، وزويت جليله، وعرفت دقيقه، وعقلت شارده، ورويت نادره، وعلمت غامضه ووعيت واضحه...

فأمللت هذا الكتاب من حفظى فى الأخمسة بقرطبة، وفى المسجد الجامع بالزهراء المباركة، وأودعته فنونا من الأخبار، وضروبا من الأشعار، وأنواعا من الأمثال، وغرائب من اللغات. على أنى لم أذكر فيه

بابا من اللغة إلا أشبعته، ولاضربا من الشعر إلا اخترته، ولافنا من الخبر إلا انتحلته، ولا نوعا من المعانى والمثل إلا استجدته. ثم لم أخله من غريب القرآن وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم.»(٦٤)

تحدث أبو على القالى عن مكانته فى علم الرواية وكيف حازها، فأول شىء الرغبة فى العلم، وبذل كل مرتخص وغال فى طلبه بالسفر إلى العلماء وملازمتهم والأخذ عنهم بالمسألة والسهر للحفظ والدراسة ومداومة ذلك إلى أن ينضج الدارس بالرواية والدراية حتى يتهيأ لطالب العلم أن يتصدر للتدريس ويكون قادرا على الاختيار والاملاء.

إن القالى يرسم المنهج لطلاب علم الأدب ويحثهم على طلبه.

هذه هى مدرسة الاختيارات الأدبية؛ معالمها وأعلامها ومناهجها. وتقابل بمدرسة المتكلمين ملخصى وشراح مفتاح العلوم للسكاكى وهى المدرسة التى جعلت البلاغة علما جافا له مقدمات منطقية ومعالجات عقلية فلسفية خرجت بالأدب عن ماهيته وبدرسه عن طبيعته.

تتفق مدرسة البديع مع مدرسة المختارات الأدبية وتختلف. تتفق فى أن مدرسة البديع متصلة بالرواة والشعراء والكتاب مثل مدرسة المختارات، وتختلف مدرسة البديع عن مدرسة المختارات فى أن مدرسة البديع لاتعنى من الأدب إلا بشمرته، وتدلل على الظواهر البديعية بالشواهد. وتختلف عنها مدرسة المختارات الأدبية فى أنها تعنى بكل قضايا الأدب وصوره، فالمآخذ، والسرقات والمواتاة، والنظم، وتعدد مظاهر النبوغ فى الأدب، والموازنة بين الأدباء، والمعانى الشعرية، والبديع -أهم موضوعات الدرس عند مدرسة الاختيارات الأدبية فهى أشمل تصورا ومعالجة لقضايا الأدب من مدرسة البديع وإن جمعهما اسم المدرسة الأدبية.

٢ - ابن المعتز ومدرسة البديع

قال ابن المعتز: «...قد قدمنا أبواب البديع الخمسة (الاستعارة، والتجنيس، والمطابقة، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها، والمذهب الكلامى) وكمل عندنا، وكأنى بالمعاند المغرم بالاعتراض على الفضائل قد قال: البديع أكثر من هذا، أو قال البديع باب أو بابان من الفنون الخمسة التى قدمناها فيقلُّ من يحكم عليه، لأن البديع اسم موضوع لفنون من الشعر، يذكرها الشعراء، ونقاد المتأدبين منهم، فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو.

وما جمع فنون البديع،ولا سبقنى إليه أحد،وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين، وأول من نسخه منى على بن هارون بن يحى بن أبى منصور المنجم»(٦٥)

فابن المعتز نشر كتابه بعد وفاة الجاحظ بتسع عشرة سنة. والبديع -كالمجاز- من الوجوه العامة فى البلاغة التى تشمل وجوها خاصة عديدة. ويتبارى العلماء بصنعة الشعر فى استكشافها. وعبارة ابن المعتز تفيد هذا المعنى وتؤكدها عبارته التالية قال: «ونحن الآن نذكر بعض محاسن الكلام، ومحاسنها كثيرة لا ينبغى للعالم أن يدعى الإحاطة بها حتى يتبرأ من شذوذ بعضها عن علمه وذكره، وأحببنا لذلك أن تكثر فوائد كتابنا للمتأدبين ويعلم الناظر أنا اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة، اختيارا من غير جهل بمحاسن الكلام، ولا ضيق فى المعرفة، فمن أحب أن يقتدى بـــنا، ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة، فليفعل، ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئا إلى البديع ولم يأت غير رأينا، فله اختياره».(٦٦)

وأثر الجاحظ فى درس البديع ظاهر من حديث ابن المعتز عن المذهب الكلامى،[٦٧] قال: «وهو مذهب سماه عمرو الجاحظ المذهب الكلامى.»

وهذا باب ما أعلم أنى وجدت فى القرآن منه شيئا وهو ينسب إلى التكلف تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

المتقدمون: (قال أبوالدرداء: إن أخوف ما أخاف عليكم أن يقال: علمت فماذا عملت.) وقال الفرزدق:

لكل امرىء نفسان، نفس كريمة وأخري يعاصيها الفتى ويطيعها
ونفسك من نفسيك تشفع للندي إذا قل من أحرارهن شفيعها»

والمذهب الكلامى أشمل عند الجاحظ مما ذكر ابن المعتز، والشواهد القرآنية عليه كثيرة، منها قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)، ومنها قوله تعالى: (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين. وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحى العظام وهى رميم. قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم. الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون...)[٦٩]

أثبتنا لك تأثر ابن المعتز بالجاحظ فى درس البديع ونضيف أن مجال هذا التأثر أشمل من الباب الذي أوقفناك عليه وعندنا دراسة مستفيضة فى هذا الموضوع لما تنشر منذ ١٩٧٧.[٧٠]

ونذهب الى أن الجاحظ وابن المعتز أسسا مدرسة البديع فى الدرس البلاغى، فالجاحظ اجتمعت فيه الموهبة الأدبية بمظهريها كابن المعتز، فالجاحظ إلى جانب دراسته للأدب كان يعرف بالنثر وينظم الشعر، وابن المعتز تتعادل شهرته بالشعر إنشاء على شهرته بالشعر دراسة، ومؤلفاته تشهد بأنه من أعلام النثر. والبديع دلنا الجاحظ على مدرسته فى كتابه البيان والتبيين حين قال: «وقال الأشهب بن رميلة...، قوله (هم ساعد الدهر) إنما هو مثل، وهذا الذي تسميه الرواة البديع»[٧١] فهو يفصل الصورة البيانية عن البديع ويلحقها بالمجاز مخالفا فى ذلك الرواة.

وحين قال: «ومن الخطباء الشعراء من كان يجمع الخطابة والشعر لجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن: كلثوم بن عمرو العتابى ...وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله فى البديع يقول جميع من يتكلف ذلك من شعراء المولدين، كنحو منصور النمري ومسلم بن الوليد الأنصاري وأشباههما. وكان العتابى يحتذي حذو بشار فى البديع، ولم يكن من المولدين أصوب بديعا من بشار وابن هرمة»[٧٢] فقد درس اتجاهات الشعراء فى فن البديع ووضعهم فى طبقات.

فمدرسة البديع عند الجاحظ هى المدرسة الأدبية التى جمعت الشعراء والكتاب والخطباء، وهذا الاتجاه اشتهر به المولدون وله خصائص فنية برزت عندهم بصورة أوضح من غيرهم،

أظهر ملامحها القصد الى الصنعة الفنية، وتباين اعتمادهم على هذا الفن، فمنهم من أسرف فيه إسرافا جنبه الصواب. ومنهم من أصاب فى إيراده المقدار. فالجاحظ لا ينكر قدم البديع فى التراث فيؤيد دعوي حداثته، وإنما يقرن تعمده بالمحدثين، ويقومه جماليا بمبدأ الإصابة وتقبل الناس له.

والبديع عند ابـن المعتز ليس وجها عاما من وجوه البلاغة ما يندرج تحته من وجوه غير ما يندرج تحت المجاز، ولا يشتهر به بعض الشعراء ويتميزون به دون غيرهم. وإنما البديع عنده الآثار الأدبية المبتكرة التى تأنق أصحابها فى صنعها وفرضت نفسها على الناس فشاعت وخلدت وتجاوزت الزمان والمكان. ودعوي حداثته على أيدي المولدين مرفوضة فهو شعر عربى أصيل، فالبديع عند ابن المعتز هو البلاغة.

والبديـــع فى تصور الجاحظ وابن المعتز درس بلاغى نتج عن قضايا نقدية مثارة، منها الخصومة حول شاعر ومذهبه انفنى، ومنها الخصومة بين أنصار القدماء وأنصار المحدثين، ومنها قضية الطبع والتكلف، ومنها قضية الأسلوب العاري والأسلوب المزخرف.

والـــدرس البلاغى بنى على ما استقر لدي دارسى الأدب من نتائج تلك المناظرات التى شارك فيها الرواة والشعراء والكتاب أى أعمدة المدرسة الأدبية. وتستطيع أن تقف على ذلك فى باب احتجاج الخصمين فى الموازنة بين الطائيين للآمدى، وبعض فقرات الوساطة للقاضى على بن عبدالعزيز الجرجانى.

لم توافق المدرسة الأدبية فى درس البديع بزعامة ابن المعتز على تصور المتكلمين بدءا بالجاحظ فعبد القاهر الجرجانى [٧٢] فالسكاكى ن البديع وجه عام من وجوه البلاغة يشتمل على جزئيات بعضها يتصل باللفظ وبعضها الآخر يتصل بالمعنى، فالبديع عند المتكلمين لا يختص بدراسة الصورة البيانية (علم البيان) كما لايختص بالتراكيب أي بحوث علم المعانى. ويمكن أن نعتبر إيراد ابن المعتز باب الاستعارة باعتباره أول أبواب البديع ثم إيراده فى محاسن الكلام موضوعى (التعريض والكناية) و(حسن التشبيه) -يمكن أن نعتبر هذا المسلك من ابن المعتز رفضا لفكرة الجاحظ إن الصورة البيانية ليست من البديع. ونعتبره فى نفس الوقت إعلانا أن البديع هو العطاء الذي يثري به الأديب اللغة العربية، وليس لأحد الحق فى أن يقصر التجديد على باب دون غيره من أبواب البلاغة. وارجع إلى أقوال ابن المعتز: (البديع أكثر من هذا)، ومحاسن الكلام عنده (لا ينبغى للعالم أن يدعى الاحاطة بها)، و(من أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئا إلى البديع ولم يأت رأينا،فله اختياره) واقرنها بتباري أصحاب البديع فى استكشاف الوجوه الجديدة ونمو هذا الدرس على أيدي أصحاب البديعيات، وأنا على ثقة أنك ستوافقنى أننا باراء مدرستين فى درس البديع، مدرسة كلامية رأسها الجاحظ ومدرسة أدبية رأسها ابن المعتز.

محاسن الكلام عند ابن المعتز هى (الالتفات، والاعتراض، والرجوع، وحسن الخروج، وتأكيد المدح، وتجاهل العارف، والهزل يراد به الجد، وحسن التضمين، والتعريض والكناية، والإفراط فى الصفة وحسن التشبيه، ولزوم ما لا يلزم، وحسن الابتداء؛

فاذا أضفناها إلى أبواب البديع الخمسة صارت جملة الوجوه البديعية عند ابن المعتز ثمانية عشر وجها بديعيا.

لقد عرضنا فى الجزء الثانى من دراستنا (آراء الجاحظ البلاغية وتأثيرها فى البلاغيين العرب حتى القرن الخامس الهجري) لوجوه البديع ومحاسن الكلام عند ابن المعتز. ووجدنا الجاحظ قد تناول هذه الوجوه وزاد عليها.

وندعوك للمقارنة بين حديث ابن المعتز عن المطابقة وتناول الجاحظ لها وبخاصة حديثه عن اصابة المقدار. والذي نقرره هنا إن اعتماد ابن المعتز على الجاحظ ثابت ولم ينفه ابن المعتز. وهذا الاعتماد لم ينف تفرد ابن المعتز بوجهة نظرمختلفة عن وجهة نظر الجاحظ فى البديع . وتاريخ الدرس البلاغى يثبت أن وجهة نظر ابن المعتز سارت عليها المدرسة الأدبية فى درس البديع فى حين تابعت المدرسة الكلامية وجهة نظر الجاحظ. أما بالنسبة لدعوي ابن المعتز إنه ما جمع فنون البديع ولا سبقه إليها أحد قبله فالواقع العلمى يثبت بطلانها.

وقد أضاف قدامة بن جعفر الكاتب (ت ٣٣٧ هـ) فى كتابه (نقد لشعر) ثلاثة عشر محسنا هى بترتيب ورودها فى كتابه (الترصيع، والغلو، وصحة التقسيم، وصحة المقابلات، وصحة التفسير، والتتميم، وقد ضمنه ما سماه ابن المعتز بالاعتراض، والمبالغة، والاشارة، والإرداف، والتمثيل وقد سمى بعده باسم التعطف، والتوشيح وقد وسع معناه بالقياس لى ما سماه ابن المعتز برد الأعجاز على ما تقدمها من الكلام، والإيغال، والتكافؤ وهو الطباق عند ابن المعتز)[٧٤]. وقد عد ابن أبى الإصبع لمصري التكافؤ لونا من الطباق يختص بألفظ المجاز.

أما أبوهلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) فقد جعل الباب التاسع من كتابه (الصناعتين) لفنون البديع، وهى عنده خمسة وثلاثون فنا، ويقول إنه زاد فيها على ما أورده سابقوه ستة فنون. وكأنه يلتقى معهم فى تسعة وعشرين فنا. أما الستة التى وضعها فهى (التشطير، والمجاورة، والتطريز، والمضاعف، والاستشهاد، والتلطف). وأما السبعة التى نقلها الينا ولا نعرف لمن تنسب فهى: (المماثلة، والتذييل، والاستطراد، وجمع المؤتلف والمختلف، والسلب والايجاب، والاستثناء، والتعطف) يقول الدكتور شوقى ضيف: «ويظهر لنا أن أبا هلال جلب هذه المصطلحات السبعة من رسالة خاله أبى أحمد فى صناعة الشعر».[٧٥] وعندنا إن هذه الوجوه ليست خالصة لأبى أحمد، فالجاحظ سبقه بالحديث عن الاستثناء البديعى.

أما ابن رشيق القيروانى (ت٤٦٣ هـ) فى كتابه العمدة، فقد خلط البديع بالمجاز واستفاد من دراسات السابقين عليه فى البديع وجاد عرضها بتبويب يحمد عليه حيث جمع الأشباه ورتبها ترتيبا موضوعيا. وندلل على هذه الظاهرة بمثالين فى الجزء الأول من الكتاب.

أورد باب المقاطع والمطالع وأردفه بباب المبدأ والخروج والنهاية وأردفه بالاستطراد والتخلص والإنتهاء وفى أثناء هذه الأبواب أورد شواهد عديدة على إبدعات الشعراء فى هذه الأبواب وما أخذ عليهم فيها. ويجمع هذه الوجوه اتصالها بالوحدة العضوية للقصيدة والخطبة والرسالة.

والمثال الثانى أنه أردف باب التشبيه بباب الإشارة، ثم التعريض فالتلويح فالكناية فالرمز فاللغز فاللحن فالحذف فالتوريه. وهذه الأبواب كلها تعرض لظاهرة واحدة هى لجوء الأديب إلى الإخفاء وعدوله عن التصريح لدواع منها خوف الأديب ممن عرض له فى أدبه أو خوفه عليه، وقد قالوا إن الكناية أبلغ من التصريح فى بعض المواطن.

ونختم حديثنا عن البديع فى العمدة لابن شيق بقول الدكتور شوقى ضيف: « وأهمية دراسته لا ترجع إلى الفنون القليلة التى أضافها منوها بها، وهى الاتساع والاطراد ونفى الشيء بإيجابه، والتفريع، والترديد، والتتبيع. وإنما ترجع إلى أنه استوفى قراءة أكثر ما سبقه من مصنفات، ونص فى مواضع كثيرة على المصنفين الذين استمد منهم، وقارن بين آرائهم، وأشار إلى اختلافهم أحيانا فى ألقاب بعض المصطلحات ».(٧٦)

وينمو درس البديع فى القرن السادس الهجرى فأسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ) يوزع وجوهه فى كتابه (البديع فى نقد الشعر) على خمسة وتسعين بابا.

وابن أبى الإصبع المصرى (ت ٦٥٤هـ) يحصى مائة واثنين وعشرين محسنا بديعيا فى كتابه (تحرير التحبير) ويحصى فى كتابه (بديع القرآن) مائة محسن وثمانية. يقول الدكتور شوقى ضيف «ومن أهم ما يلاحظ عنده دخول بعض أبواب المعانى فى البديع».

وهذه الملاحظات عن عد أبواب علمى البيان والمعانى عند أصحاب البديعيات من صميم البديع تبرهن على صحة ما ذهبنا إليه إن المدرسة الأدبية أرادت بالبديع البلاغة كلها خلافا لما تصورته مدرسة المتكلمين أن البديع علم من علوم البلاغة. ولمدرسة الإعجاز عناية بالبديع نعرض لها فى درس مدرسة الإعجاز.

٣ - مدرسة إعجاز القرآن

١ - أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢١٣-٢٧٦هـ)

يمثل ابن قتيبة امتداد آراء الجاحظ فى الجيل التالى له مباشرة من القرن الثالث الهجرى، وهما يصوران الجهود البلاغية فى هذا القرن من زاويتين مختلفتين زاويتى المعتزلة وأهل السنة؛ فالجاحظ أديب متكلم، وابن قتيبة فقيه متفكر ناصب المتكلمين العداء، ومن هنا يتضح الفرق الجوهرى بينهما المتمثل فى نظر الجاحظ الأديب المفكر لقضايا الأدب شعره ونثره، ونظر ابن قتيبة الفقيه المفكر لتلك القضايا.

وهذا الاختلاف بينهما ظاهر أخفى مشابه عديدة بينهما؛ منها الثقافة الموسوعية، والولاء الصحيح للعروبة والاسلام، وكل واحد منهما ليس عربياً صليبة، فالجاحظ إفريقى الأصل، وابن قتيبة فارسى الأصل، وكل واحد منهما مثال يحتذى فى المبادرة إلى الدفاع عن الإسلام والعروبة. ومن المشابه بينهما أيضا غزارة مؤلفات كل منهما وتنوع موضوعاتها. فبادر كل منهما إلى التأليف الهادف إلى توجيه الكتاب والمتأدبين لما يعينهم على تنمية مواهبهم بالاختيارات من الشعر والنثر، وعرض قضايا الأدب واللغة التى تبصر بالعقيدة، وتبطل دعاوى الملحدين والشعوبيين؛ كالحديث عن الحقيقة والمجاز، وضوابط التأويل، وأبعاد درس التشبيه والاستعارة. وتصدر مؤلفات كل منهما عن فكر بلاغى نتج عن تصديهما لدعاوى الملحدين والخوارج تمثل فى نظرية إعجاز القرآن فى نظمه التى نادى بها الجاحظ فى كتابه المفقود (نظم القرآن) وطبقها ابن قتيبة فى

كتابه (تأويل مشكل القرآن) فلا غرابة إذن فى أن تعتمد أجيال الدراسين المتتابعة بعدهما إلى يومنا كتب الجاحظ وابن قتيبة من أركان الأدب العربى.

ويقف بعض البلاغيين عند الخلاف بين ابن قتيبة والجاحظ كثيرا، ولانرى فائدة ترجى من ذلك، وعندنا أن الخلاف بينهما ليس جوهريا، فهو خلاف مذهبى أسرف فيه ابن قتيبة، وكان الجاحظ ينادى بحسم هذا اللون من الخلاف بقوله (فى الحق ماوسع الجميع) فنحن بإزاء بلاغة واحدة لأمة واحدة لايصح عندها إلا الصحيح. أما ماخالف الصواب أو صدر عن الحسد -وهو داء إنسانى لاينجو منه العلماء- فليس من البلاغة.

وقد رأينا أن امتداد آراء الجاحظ البلاغية عند ابن قتيبة يتمثل فى باب الإعجاز وهو أصلح الأبواب لإثبات ماقلناه منذ بدأنا الحديث عن ابن قتيبة .

قال ابن قتيبة فى كتابه (تأويل مشكل القرآن): «وللعرب المجازات فى الكلام، ومعناها طرق القول ومآخذه، ففيها الاستعارة والتمثيل، والقلب، والتقديم، والتأخير، والحذف، والتكرار، والإخفاء، والإظهار، والتعريض والإفصاح، والكناية والإيضاح. ويخاطب الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ العموم لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص، مع أشياء كثيرة[٧٧]».

فالمجازات بهذا الاستعمال وجوه البلاغة المختلفة، وهى مظهر الإعجاز القرآنى المتمثل فى نظمه البديع ، وهذا ما نادى به الجاحظ وتابعه فيه ابن قتيبه.

وقد استفاد ابن قتيبة من الجاحظ تفريقه بين الحقيقة والمجاز، قال «وقد ذهب قوم فى قول الله وكلامه إلى أنه ليس قولا ولا كلاماً على الحقيقة، وإنما هو إيجاد للمعانى وصرفوه فى كثير من القرآن إلى المجاز»[٧٨] وقد كان الجاحظ أول من قال إن المجاز قسيم الحقيقة.

وإذا كان بينهما قدر مشترك من الاتفاق فى معنى المجاز ووجوهه فهذا لايعنى تقارب تناولهما مسائله، ومرد الخلاف عندنا لى اختلاف الحس اللغوى عند كل منهما عن الآخر، واختلاف البصر بالصور الخيالية، واختلاف المواقف فى توجيه النصوص الأدبية لتباين منزعيهما. وقد وضح هذه الظاهرة (يوهان فك) فى كتابه (العربية)، قال: «يباشر ابن قتيبة بحوثه -على اختلاف الجاحظ- بدقة تحفل بالصغائر، ولئن فقدت توضيحاته وبحوثه المفصلة فى ذلك الظرف المتوثب الخفيف الروح، الذى يجعل استطرادات الجاحظ أخاذة ساحرة، إنه ليفيدنا بفضل أسلوبه المتعمق الجزل كثيرأمن التفاصيل عن الاستعمال اللغوى فى عصره، على الرغم من أنه ليس من عادته -بوجه عام- أن يسمى الأسلوب أو التالب الذى ينتقصه تسمية واضحة، وهو فى ذلك كما يثبت شارحه البطليوسى -ينصب نفسه محامياً عن مبدأ (تنقية اللغة العربية) المتطرف والأصمعى بوجه عام، عمدة من يحتج بهم من الرجال »[٧٩] .

ولتتم استفادتك من عبارة المستشرق الألمانى (يوهان فك) نذكر لك أن الجاحظ أشار فى الحيوان (١/ ٣٣٠-٣٣٤) إلى أن لفظ (الملة) يستعمل فى الخبز، ومعناه الرماد الحار الذى يخبز به. وقد نص على أن هذا الاستعمال خطأ عند الأصمعى، وهو عند الجاحظ يعد من الاشتقاق (بمعنى التوليد عندنا) وهو لون من ألوان المجاز عنده. وهو فى عرفنا مجاز مرسل من تسمية المسبب باسم السبب كقولهم (رعينا الغيث) أى النبات الذى سببه الغيث.

ولنأخذ شاهدين فى مسألتين خلافيتين بين الجاحظ وابن قتيبه للتدليل على ما نقول: أولهما: تأويل الجاحظ الآية (واتخذ الله إبراهيم خليلا)[٨٠] أى فقيراً إلى رحمته وجعله من الخَلَّة[٨١] استيحاشاً من أن يكون الله خليلا لأحد من خلقه. واحتجاجاً بقول زهير:

وإن أتاه خليل يوم مسألة يقول لا غائب مالى ولاحرم

أى أتاه فقير.

ويخالف ابن قتيبة الجاحظ قائلا: «فأية فضيلة فى هذا القول لإبراهيم صلى الله عليه وسلم. أما تعلمون أن الناس جميعاً فقراء إلى الله تعالى؟ وهل إبراهيم فى (خليل الرحمن) إلا كما قيل: موسى كليم الله وعيسى روح الله؟»[٨٢]

وثانيهما قول ابن قتيبة «وقالوا فى قوله تعالى (وقالت اليهود يد الله مغلولة) أن اليد هنا النعمة لقول العرب (لى عند فلان يد، أى نعمه ومعروف) وليس يجوز أن تكون اليد ههنا النعمة،

لأنه قال (غلت أيديهم) معارضة عما قالوه فيها، ثم قال (بل يداه مبسوطتان) لأن النعم لاتغل، ولأن المعروف لا يكنى عنه باليد، إلا أن يريد جنسين من المعروف فيقول: (لى عنده يدان، ونعم الله أكثر من أن يحاط بها)»[٨٣]

ولبيان الرأى فى المسألتين نورد المبدأ الذى استنه الجاحظ حين عاب تخبط المسرفين فى التأويل بغير سند من نص اللغة أو عرفها، قال: «ونحن إذا استنطقنا الشاهد وأحلنا على المثل فالخصومة حينئذ إنما هى بينهم وبينها. إذا كنا نحن لم نستشهد إلا بما ذكرنا، وفيما ذكرنا مقنع عند علمائنا. إلا أن يكون شىء يثبت بالقياس، أو يبطل بالقياس، فواضع الكتاب ضامن لتخليصه، وتلخيصه ولتثبيته وإظهار حجته)[٨٤]

وقال: «فللعرب أمثال واشتقاقات وأبنية، وموضع كلام يدل عندهم على معانيهم، ولتلك الألفاظ مواضع أخر، ولها حينئذ دلالات أخر، فمن لم يعرفها جهل الكتاب والسنة، والشاهد والمثل،فإذا نظر فى الكلام وفى ضروب من العلم، وليس هو من أهل هذا الشأن هلك وأهلك.»[٨٥]

فالخصومة بين الجاحظ وابن قتيبة ينبغى أن لا تفسر دائما على أنهاخصومة بين المعتزلة وأهل السنة، وإنما حول قول زهير وقول العرب (لى عند فلان يد أى نعمة ومعروف). فابن قتيبة يرفض تأويل الجاحظ ولكنه يعجز عن دحض دليله. وقول ابن قتيبة فى نفى أن تكون اليد هى بمعنى النعمة فيه مغالطة كبيرة فضلا عما يؤدى إليه من التشبيه والتجسيم، تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً. فقوله تعالى (غلت أيديهم دعاء عليهم، وليس فيه مجاز.

وارجع إلى قول الجاحظ السابق (فللعرب أمثال واشتقاقات.... ولتلك الألفاظ مواضع أخر، ولها حينئذ دلالات أخر...) فستجد أنه يقدم لنا قاعدة بلاغية بمثابة القانون بها وبأمثالها صارت البلاغة علماً.

أردنا من المقايسة بين كتاب (نظم القرآن) المفقود للجاحظ من خلال الآثار التى بقيت لنا منه فى كتبه، وكتاب (تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة الذى بناه على نظرية الجاحظ (إعجاز القرآن متمثل فى نظمه) -أردنا أن نثبت لك إنه فتح باباً جديداً فى الدرس البلاغى وإن البلاغيين من بعده ساروا وراءه فى هذا الدرب مقتفين آثاره. وأولهم تلميذه ابن قتيبة ،وقد أثبت أستاذية الجاحظ فى هذا الميدان قبلنا الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى كتابه (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية)، قال: «إن أول كتاب وضع لشرح الإعجاز وبسط القول فيه على طريقتهم فى التأليف، إنما هو -فيما نعلم- كتاب (إعجاز القرآن) لأبى عبد الله محمد ابن يزيد الواسطى المتوفى سنة ٣٠٦ هـ ،وهو كتاب شرحه عبد القاهر الجرجانى شرحاً كبيراً أسماه (المعتضد) وشرحا آخر أصغر منه، ولا نظن الواسطى بنى إلا على ما ابتدأه الجاحظ ،كما بنى عبد القاهر فى (دلائل الإعجاز) على الواسطى.

ثم وضع أبو عيسى الرمانى (المتوفى سنة ٣٨٢ هـ) كتابه فى الإعجاز فوضع بذلك درجة ثالثة، وجاء القاضى أبو بكر الباقلانى (المتوفى ٤٠٣ هـ) فوضع كتابه المشهور (إعجاز القرآن) الذى أجمع المتأخرون من بعده على أنه باب فى الإعجاز على حدة، والغريب أنه لم

يذكر فيه كتاب الواسطى ولاكتاب الرمانى، ولاكتاب الخطابى الذى كان يعاصره، وأومأ إلى كتاب الجاحظ بكلمتين لاخير فيهما، فكأنه هو ابتدأ التأليف فى الإعجاز بما بسط واتسع، وفى ذلك مايثبت لنا أن عهد هذا التأليف لايرد فى نشأته الى غير الجاحظ.(٨٦)

درس الاعجاز والفكر البلاغى

أشـار ياقوت الحموى فى كتابه معجم الأدباء إلى أن كتاب نظم القرآن (للجاحظ) ثلاث نسخ، وهذا يعنى أن مؤلفه داوم على تنقيحه والإضافة إليه. وقد أهداه إلى أبى الوليد محمد بن أحمد بن أبى دواد وخاصبه قائلا: «فكتبت لك كتابا أجهدت فيه نفسى وبلغت منه أقصى مايمكن أن يبلغه مثلى فى الاحتجاج للقرآن والرد على كل طعان ، فلم أدع فيه مسألة لرافضى ولالحديثى ولالحشوى ولالكافر مبادر ، ولالمنافق مقمع ولا لأصحاب النظام ولمن نجم بعد النظام ممن يزعم أن القرآن حق ، وليس تأليفه بحجة ، وأنه تنزيل وليس ببرهان ولادلالة . فلما ظننت أنى قد بلغت أقصى محبتك وأتيت على معنى صفتك أتانى كتابك تذكر أنك لم ترد الاحتجاج لنظم القرآن وإنما أردت الاحتجاج لخلق القرآن وكانت مسألتك مبهمة .... فكتبت لك أشق الكتابين وأثقلهما وأغمضهما معنى وأطولهما ....»(٨٧)

ويقع الكتاب بين عدة كتب له ذكرها فى تقدمته لكتابه الفتياهى هذه الكتاب: (حجج النبوة) و(الأخبار وكيف تصح) و(آى القرآن) و(مسائل القرآن) ووصفها بأنها: ليست -بحمد الله- من باب الطفرة والمداخلة ولامن باب الجوهر والعرض، بل كلها من الكتاب والسنة، وبجميع الأمة إليها أعظم الحاجة. وتقع هذه الكتب فى أخريات حياة الجاحظ أى فى الفترة من ٢٤٧هـ الى ٢٥٥هـ. وهى الفترة التى تكشف فيها أمر المعتزلة وعزل قادتهم وسجنوا وصفيت أموالهم وردت الى بيت مال المسلمين، فالجاحظ حين قال لأبى الوليد محمد بن أحمد بن أبى دواد إنه لم يفهم رسالته أراد أن ينبهه بأسلوب الحكيم إلى أنه عزف عن الخصومات الكلامية، وأنه صار من المعتمدين على الكتاب والسنة الزاهدين فى الموضوعات الفلسفية، المتفرغين لدرس الإعجاز القرآنى. وفى هذه الفترة الأخيرة من عمر الجاحظ ألف مع هذه الكتب كتابيه الكبيرين (الحيوان) و(البيان والتبيين).

ففقد كتابه (نظم القرآن) لايشكل خسارة كبيرة لأنه عالج كثيراً من مسائله فى كتب هذه الفترة. ولأن الكتب المؤلفة فى إعجاز القرآن بعده نقلت عن الجاحظ حلولا للقضايا التى أثارها فى كتابيه البيان والتبيين والحيوان مما يتصل بنظم القرآن.

لقد أشار الأستاذ الرافعى الى أن المؤلفين بعد الجاحظ لم يشيروا إليه. وهذه ظاهرة لاتقتصر على ما أخذ من الجاحظ، فالباقلانى نقل عن الرمانى ولم يشر إليه بالاسم فى مواطن كثيرة. إن محاولة رد كل قول

الى صاحبه عند أصحاب الإعجاز غير مجدية. لقد اتفقوا اتفاقا غير مكتوب على أن يكون هذا الدرس البلاغى خالصا لله فيختار اللاحقون من أقوال السابقين مايرونه جديراً بالتسجيل دون أن ينسبوا القول إلى صاحبه دائماً. وحين يذكر المتأخر اسمه لايبتغى من وراء ذلك نسبة هذا العطاء البلاغى إليه، وإنما يريد أن تقدر هذا العطاء تقديرك لمن نقله إليك. هذا هو تصورنا لخلق أصحاب الإعجاز.

معنى هذا أن الفكر البلاغى عند أصحاب الإعجاز ارتبط بصحة الولاء بعيداً عن الأيديولوجيات بلغة عصرنا والتلبيس بلغة القدماء، ونذكرك بولاء المؤمنين المنصوص عليه فى الآيتين ٧١، ٧٢ من سورة التوبة. قال تعالى: (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم. وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم).[٨٨]

الجاحظ حين قال إن إعجاز القرآن فى نظمه كان قد اكتشف أن المعتزلة طائفة من طوائف الخوارج،[٨٩] وتمسك بالكتاب والسنة، ووجه أدبه ودرس أدبه إلى جماعة المؤمنين.

وابن قتيبة صح ولاؤه للعربية والإيمان منذ نشأته. وهذا الحكم بولاء المؤمنين نجده عند دارسى الإعجاز قاطبة. فصحة الولاء لبنة من لبنات الفكر البلاغى الذى أوجده درس الإعجاز.

معنى الإعجاز فى النظم أنه باق الى يوم الدين، وأن من يقبل التحدى، فى زماننا أو فى أى زمان تال، فإنه يستطيع أن يعرض محاولته على العلماء. وهذا ما لم يحدث. ومعنى هذا بالنسبة لدارس الأدب أن

وظيفته المترتبة على الإعجاز هى استكشاف وجوه البلاغة المختلفة من خلال درس النص القرآنى. ومعنى الإعجاز أيضا إن إطلاق مصطلح النقد الأدبى وتعميمه على درس الأدب العربى خطأ ينبغى الرجوع عنه: وقد وقع فى هذا الخطأ الجسيم د.محمد مندور فى كتابه (النقد المنهجى عند العرب) و د.محمد زغلول سلام فى كتابه (أثر القرآن فى تطور النقد العربى) والدكتور طه الحاجرى فى دراساته عن تاريخ النقد العربى والدكتور إحسان عباس فى كتابه (تاريخ النقد الأدبى عند العرب) وغيرهم. وقد نبه إليه الأستاذان محمد خلف الله أحمد وأمين الخولى إبان حدوثه.

أدرك أصحاب الإعجـاز جميعاً أن الإعجاز بلسان عربى مبين قد كرم الأمة العربية وحفظ لها لغتها فامتازت على غيرها من اللغات ميزات يعجز الإنسان عن حصرها، منها مانسميه وحدة التراث، أى ترتب فهم القرآن على الشعر العربى الصحيح النسبة إلى قائليه فى الفترة السابقة على ظهور الإسلام. واستفادة دراسة الأدب مما قام حول القرآن من دراسات لغوية ونحوية وفقهية وتفسيرية وبلاغية. وصار فهم القرآن مرتبطاً بالتبحر فى العربية، وأصبح المقدم فى العلم بالعربية والقرآن مقدماً فى الحياة الاجتماعية.

وقـد عبر أبو هلال العسكرى عن هذه الحقيقة بقوله مستهلا خطبة كتابه الصناعتين الذى لم يقصره على فى الإعجاز: «إن أحق العلوم بالتعلم، وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة الذى به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى ..... وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة... لم يقع علمه بإعجاز القرآن مـن جهـة

ماخصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب .. وإنما يعرف إعجازه من جهة عجز العرب عنه... وقبيح لعمرى بالفقيه المؤتم به، والقارىء المهتدى بهديه، والمتكلم المشار إليه فى حسن مناظرته.. وبالعربى الصليب والقرشى الصريح أن لايعرف إعجاز كتاب الله إلا من الجهة لتى يعرفه منها الزنجى والنبطى، وأن يستدل عليه بما استدل به الجاهل الغبى. ولهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة ومناقب معروفة. منها أن صاحب العربية إذا أخل بطلبه وفرط فى التماسه... بان جهله وظهر نقصه.....»(٩٠)

ونبـهوا جميعاً إلى أن الإعجاز المستكشف فى القرآن الكريم مختلف جملة وتفصيلاً عن إبداعات البلغاء المتفاوتة مواهبهم وحالات إبدعهم وما يعتور مواهبهم من قصور يبدو أحياناً فى صورة مآخذ للعلماء على الشعراء، وأحياناً أخرى فى عدم مواتاة الطبع صاحبه فى لحظات أو فترات قد تطول. فيحتال الأديب لشحذ قريحته بالرحلة والصيد والنزهة بين الرياض.

قال الرمانى (البلاغة إيصال المعنى إلى القلب فى أحسن صورة من اللفظ، وهى على ثـلاث طبقـات: منها ماهو فى أعلى طبقة ومنها ماهو فى أدنى طبقة، ومنها ماهـو فى الوسائط بين أعلى طبـقة ودنى طبقة.) (٩١) والنص القرآنى عنده اتصف بأعلى طبقة فى البلاغة وهى طبقة الإعجاز.

والباقـلانى: يؤكد أن «كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً بيناً فى وجوه كثيرة من البلاغة بحيث لم يسلم بليغ من عيب، أما نظم القرآن على تصرف وجوهه وتباين مذاهـبه فخارج عن المعهود من نظام كلام النـاس،

ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، ولـه أسلوب يختص به، ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد، من ذكر قصص ومواعـظ واحتجاج، وحكم وأحكام وإعذار وإنذار، ووعيد ووعد، وتبشير وتخويف وأوصاف، وتعليم أخلاق كريمة، وشيم رفيعة، وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التى يشتمل عليها.

وتجد كلام البليغ الكامل ..يختلف على حسب إختلاف هذه الأمور:

فمـن الشعراء من يجيد فى المدح دون الهجاء.

ومنهـم من يسبق فى التقريظ دون التأبين.

ومنهـم من يغرب فى وصف الإبل أو الخيل أو السير أو وصف الحرب أو وصف الروض أو وصف الخمر أو الغزل، أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ويتناوله الكلام...

وقـد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التى قدمنا ذكرها على حد واحد فى حسن النظم، وبديع التأليف والرصف، لاتفاوت فيه، ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفاف إلى الرتبة الدنيا. وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه من الآيات الطويلة والقصيرة، فرأينا الإعجاز فى جميعها على حد واحد لايختلف».(٩٢)

أدى هـذا الفكر البلاغى إلى استكشاف وجوه بلاغية من القرآن استكشافاً متنامياً، إذ يضيف اللاحق إلى السابق ويرتفع بالبنيان، فالجاحظ يحدثنا عن المجاز قسيم الحقيقة. والخبر قسيم الإنشاء وعن الإيجار والإطناب بصورة لم تكن متيسرة له من درس الأدب شعره ونثره.

والرمانى يـرى أن البلاغة على عشرة أقسام هى (الإيجاز والإطناب والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفرق بينه وبين التنافر، والتجانس والمناسبة والتصريف[٩٢] والتضمين [٩٤] والمبالغة وحسن البيان.) ودرس هذه الأبواب لم يتيسر له استقراؤها بهذه الكيفية من الشعر والنثر.

والباقـلانى ينقل جملة من وجوه البديع الكثيرة التى اشتمل عليها الشعر، مع بيان معانيها وذكر شواهد لها أيضاً من القرآن وكلام البلغاء. بعد أن نفى السجع من القرآن وأثبت الفواصل.

هـذه نماذج لنمو الدرس البلاغى من خلال درس الإعجاز لم نرد بها الاستقصاء. والجدير بالاشارة أن أصحاب الإعجاز حددوا وظيفة جوهرية للبلاغة من خلال تقرير عدة حقائق هى * أن قيم هذه الأمة الجمالية متسقة مع خلقها * وأن هذا الارتباط بين قيم الجمال وقيم الخلق ممتد عبر الأجيال المتعاقبة * من هنا ارتبطت البلاغة بالسلوك الدال على القيم * فالبليغ من اتسق قوله مع فعله * فالفكر البلاغى الذى أكد عليه أصحاب الإعجاز أن البلاغة سلوك * وأنها مضمون وليست شكلا ومظهراً * وأنها الصدق فى الشعور والصدق فى التعبير * ومن هنا كان المعيار للقيمة الإصابة.

والجديـر بالتقدير أن البلاغيين على اختلاف مدارسهم واتجاهاتهم التفوا حول الإعجاز القرآنى مستفيدين من حقائقة مضيفين عطاءهم لهذا الدرس. يستوى فى هذا الكتاب والرواة والشعراء وهم المدرسة الأدبية أصحاب البديع، والمتكلمون الذين أسهموا فى هذا الدرس إسهامات جليلة؛ فالرمانى والقاضى عبد الجبار (صاحب المغنى خصص جزءاً لإعجـــاز

القرآن هو الجزء السادس عشر) هما من المعتزلة. والباقلانى وعبد القاهر الجرجانى من الأشاعرة لأولهما إعجاز القرآن، ولثانيهما أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز. وهذه الكتب الثلاثة من معالم الدرس البلاغى. وقد حدثناك عن ابن قتيبة من السلف * فلا فرق بين سلفى وأشعرى ومعتزلى ففى الحق ما وسع الجميع * إنما الفرق عندنا بين مصيب موافق للكتاب والسنة، ومخطئ خارج على الكتاب والسنة وهؤلاء الخوارج نرفض أن نعدهم من البلاغيين.

وسنحدثك فى درسنا علم البيان فى الفرقة الثالثة عن رد ابن تيمية على تلك الطوائف التى خالفت المسلمين من خلال إفسادها ضوابط الدرس البلاغى.

بديع القرآن لابن أبى الإصبع :

تعددت الكتب المؤلفة فى إعجاز القرآن والمؤلفة فى البديع واستفاد المتأخرون من عطاء المتقدمين، واجتمع للدرس البلاغى ما امتازت به المدرسة الأدبية من وفرة الشواهد وتنوعها وروعتها وما امتازت به مدرسة المتكلمين من سلامة التعريفات وضبط الحدود أنها جامعة مانعة، وتوفر لهذا الدرس علماء امتازوا بالاطلاع الواسع، والبصر الكاشف، والبصيرة المباركة فجمعوا أشتات هذا الدرس، وحرروه من زيادات أضيفت إليه وليست منه.

أردنا أن نختم هذا الفصل بمقدمة بديع القرآن لابن أبى الإصبع المصرى، وهو زكى الدين أبو محمد عبدالعظيم بن عبدالواحد بن ظافر بن عبدالله بن ذى الإصبع العدوانى المصرى (٥٨٥-٦٥٤هـ). وقد ألفه بعد فراغه من كتابه (تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن) حققه د.حفنى محمد شرف وحقق أيضا بديع القرآن. قال ابن أبى الإصبع فى خطبة بديع القرآن:

«كتاب (بديع القرآن) -الذى هو تتمة للإعجاز المترجم ببيان البرهان أفردته من كتاب هو وظيفة عمرى. وثمرة اشتغالى فى إبان شبيبتى، ومباحثى فى أوان شيخوختى، مع كل من لقيته من عقلاء العلماء، وأذكياء الفضلاء، ونبلاء البلغاء فى علم البيان، وكل من له عناية بتدبير القرآن، ونظر ثاقب فى نقد جواهر الكلام ومن له تمييز بين

الذهب والشبه[٩٥] من نقود النثر والنظام، جمعته من ستة وسبعين كتابا، منها ما هو منفرد بهذا العلم، ومنها ما هذا العلم داخل فى أثنائه.»[٩٦]

واستعرض المكتبة البلاغية التى رجع إليها وهى تربو عن تسعين كتابا، وقد انتقد بعض تلك الكتب ويبدو أنه أخرج ما انتقده من التسعين كتابا فصارت عدة ما وثقه من المكتبة البلاغية ستة وسبعين كتابا وهى كتب فى الأدب وفى البديع وفى النقد وفى الاعجاز وفى تفسير القرآن وفى الحديث الشريف وما استخرج منه من أحكام فيها مجاز القرآن لأبى عبيدة والبيان والتبيين، ونظم القرآن للجاحظ، والأمثال والحكم من كلام سيد الأمم لأبى أحمد العسكرى. وأمثال الزمخشرى. ومقامات البديع، ورسائله، ومقامات الحريرى، والمثل السائر لابن الأثير. وهى كما ترى مما ذكرناه ومما أغفلناه، ويمكنك الرجوع إليه فى مقدمة بديع القرآن -تشكل تراثا اتصل زمانه، واختلفت مدارسه، وتنوعت اتجاهاته، وتباعدت أقطار مؤلفيه، فرأيناه استوعب أهم آثار المشارقة والبغداديين وبلاغيى الشام ومصر وبلاغيى المغرب والأندلس وقد اتصلت أزمانهم وامتدت من أوائل القرن الثالث الهجرى إلى منتصف القرن السابع الهجرى. وقد سكت عن معاصره أبى يعقوب يوسف بن محمد بن على السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦هـ وكتابه مفتاح العلوم.

بديع القرآن لابن أبى الإصبع يؤكد على أن الدرس البلاغى متصل النمو، وأن درس الإعجازأفاد درس الأدب ووجهه الوجهة الموضوعية التى تعنى بالاستقراء للظاهرة الأدبية من القرآن ومن الشعر والنثر.

قال د.حفنى شرف:

«ولما كان (بديع القرآن) مفردا من (تحرير التحبير) لزم الاشارة إلى ما بينهما من توافق وتخالف، ففى (بديع القرآن) تكلم عن مائة باب وتسعة أبواب، وترك من أبواب (التحرير) اثنين وعشرين نوعا...وذلك لأنه لم يجد لها أمثلة فى القرآن الكريم وإن وجد بعض المؤلفين لبعضها فيما بعد».(٩٧)

كما ذكر المؤلف أنواعا بديعية فى كتاب (بديع القرآن) ولم يذكرها فى (تحرير التحبير) وهى: التفصيل، والإلجاء، والتنظير، والزيادة التى تفيد اللفظ فصاحة وحسنا، والتفريق والجمع، والرمز والايماء.

ولعل السر فى ذلك هو تأليف (تحرير التحبير) أولا ثم فراد (بديع القرآن) منه، فظهرت له هذه الأبواب بعد الدراسة والبحث عن أنواع البديع، فعثر على أمثلة لهذه الأنواع فذكرها»(٩٨)

ويؤكد (بديع القرآن) أن علماء البلاغة المتأخرين أبقوا من العطاء البلاغى ما صح دون تحيز لأحد أو تحامل على أحد، ففى الحق ما وسع الجميع. وهذه الحقيقة نستشهد عليها بهذه الفقرة من مقدمة ابن أبى الإصبع لكتابه: (بديع القرآن)، ونقول لمؤرخى البلاغة العربية إن تسجيل آراء أصحاب الفرق الإسلامية الخارجة على الكتاب والسنة والرد عليها عناء لا طائل يرجى منه، ولنا فيما انتهج ابن أبى الإصبع المثال المحتذى.

قال ابن أبى الإصبع بعد استعراض عطاء البلاغيين قبله: «..وإن كان قلما رأيت فى هذا الفن كتابا خلا من موضع نقد بحسب منزلة واضعه من العلم والدراية، فمن قليل ومن كثير، وكل أحد مأخوذ من قوله ومتروك إلا من عصم الله سبحانه من أنبيائه صلوات الله عليهم وسلامه، والسعيد من عدت سقطاته، وما أبرىء نفسى، ولا أدعى سلامة وضعى دون أبناء جنسى غير أنى توخيت تحرير ما جمعته جهدى، ودققت النظر حسب طاقتى ووسعى، فتجنبت التداخل، وتحرست من التوارد، ونقحت ما يجب تنقيحه، وصححته ما قدرت على تصحيحه.. إلى أن جمعت من ذلك خمسة وتسعين بابا أصولا وفروعا، فالأصول منها ما ابتكر المخترعان الأولان تدوينه، وهما قدامه بن جعفر الكاتب وابن المعتز، وعدتها ثلاثون بابا بعد حذف ما تواردا عليه منها، وما تداخل عليهما فيه. وخمسة وستون بابا لمن جاء بعدهما إلى زمنى هذا على ما قدمته من الشرائط.

ورأيت أن أضيف إلى ذلك الأصل والمضاف فذلكة أنا مخرج أسمائها ومستخرج شواهدها، فاستنبطت واحدا وثلاثين بابا لم أسبق فى غلبة ظنى إلى شىء منها، إلا أن يوجد فى زوايا الكتب شىء من ذلك لم أقف عليه، فأكون أنا ومن سبقنى متواردين عليه.. فأضفت ما استنبطت إلى الأصل والمضاف الذى جمعت فصارت الفذلكة مائة باب وستة وعشرين بابا كلها فى كتابى الجامع لبديع جميع الكلام الموسوم بتحرير التحبير.

ولما فتح علي بعملى الذى وسمته ببيان البرهان فى إعجاز القرآن وعلمت أنه لابد له من تتمة تتضمن ما فى الكتاب العزيز من أبواب البديع فأفردت ما يختص القرآن فكان ذلك مائة باب وثمانية أبواب».[١٩]

كان منهج ابن أبى الإصبع المصرى توفيقيا بين البلاغيين على اختلاف مدارسهم واتجاهاتهم. لم يتعصب لأحد، ولم يهاجم أحدا. كان يأخذ المفيد للدرس البلاغى ويدع ما لا حاجة للدرس البلاغى به، لذلك أشاد به معاصروه فى القرن السابع الهجرى. ونجد ابن حجة الحموى ينقل عنه ويكبره ويعتبره ثقة فيما ينقل عنه وحجة فيما يرجع إليه من تعريفات وشواهد الدرس البديعى ونقل إلينا ابن حجة أن معاصريه فى القرن التاسع الهجرى كانوا يقدرون ويوثقون ابن أبى الإصبع المصرى.(١٠٠)

٤ - المدرسة التنويرية فى الدرس البلاغى

احتفل الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين بالبحث عن مفهوم البلاغة عند غير العرب، وقد ظفر بتعريفات لها أثرت عن الفرس واليونان والروم، ولكن ما حصل عليه من تعريف الهنود للبلاغة يعد كثيرا إذا ما قورن بغيره. وقد صرح بأن مصدره الذى يروى عنه بينة الكتاب. وبدرس المعلومات التى أوردها عن البلاغة عند الفرس أو اليونان أو الروم نجد أنها قليلة وغامضة لأنها شديدة الإيجاز، فحين يرى الفارسى أن البلاغة فى معرفة الفصل من الوصل، يحرص اليونانى على ترتيب الأفكار واختيار الألفاظ المناسبة للمقام، وقريبا من هذا عند الروم بإضافة عنصر الارتجال. وقد أورد الجاحظ فى كتابه معالجة للأعراب لهذه الأبواب البلاغية. أما الأثر البلاغى الواضح الوافى عند غير العرب فهو الصحيفة الهندية.

لم نجد الجاحظ يعتبر أمة من تلك الأمم فى منزلة المعلم أو الند فى الدرس البلاغى، وقد أورد مناقشات الكتاب كابن المقفع وسهل بن هارون، والمعتزلة كبشر بن المعتمر وأبى الاشعث معمر بن عباد السلمى لما احتوته الصحيفة الهندية من قيم خطابية منافية للقيم العربية. فالهنود يشترطون فى الخطيب أن يكون رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، ويلحظ النظام ذلك فى خطيب فيضطره بالزيادة فى المسألة أن يحرك يديه ويحل حبوته... يقرر أبوعثمان عقب طرح القضية بالأخبار المختارة أن المثل الأعلى فى الخطابة وفى الشعر هو الذوق العربى، فى زى الشاعر، وفى إشارات الخطيب، وفى اختياره ما يصلح فيه الايجاز وما

يصلح فيه الاطناب. فهو إن لم يعترف لهذه الثقافات غير العربية بمنزلة المعلم، أو حتى بمكانة الند للعرب فقد أورد فى أمانة كل ما وصل إليه من آثار تلك الأمم وبين موقف الثقافة العربية منها.

يختلف تناول المدرسة التنويرية للعطاء البلاغى عند غير العرب عن موقف الجاحظ الذى صورناه لك، ونوجز أعمالهم فى السطور التالية، وتقع هذه الأعمال فى الفترة التالية لوفاة الجاحظ إلى عصر عبدالقاهر الجرجانى وتمتد عبر قرنين من الزمان.

١ - قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) وكتابه نقد الشعر

يمثل (نقد الشعر) تيارا جديدا فى البلاغة هو غلبة التأثر بالثقافة الوافدة على الثقافة الأصيلة فى فكر البلاغى ومقاييسه. وقد أدي هذا الى حرص قدامه على التقنين مما أصاب أحكامه بالجفاف، وقدامة بن جعفر الكاتب البغدادي كان متأثرا بالفلسفة اليونانية عامة، والمنطق الأرسطى خاصة.

والخلاف الجوهري بينه وبين المدرسة الأدبية (أصحاب البديع) أنه لا يبدأ بالنظر فى الشعر، بل يكون أولا هيكلا لدراسته ويحدد تقاسيمه، أو إن شئت فقل إنه يصنع قطعة أثاث هندسية ثم يأخذ فى ملء أدراجها - كما يقول الدكتور محمد مندور.(١٠١)

وقد كانت النصوص تتأبى على قدامة لقلة محصوله منها. فكان يضع الحدود ويقسم التقاسيم ويفترض وجوه الحسن ووجوه القبح بمنطقه وتفكيره، ثم يعرض تلك الوجوه على الأدباء قبل أن يدونها فى كتابه، ثم يتصيد لها الأمثلة من أفواه الناس.(١٠٢)

وانظر الى قياس قدامة المنطقى المخالف للعرف والذوق عند العرب فى قوله: «لما كانت فضائل الناس حيث إنهم ناس لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان على ما عليه أهل الألباب من الاتفاق فى ذلك إنما هى العقل والشجاعة والعدل والعفة - كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيبا، والمادح بغيرها مخطئا.»(١٠٢) فهذا القول مختلف مع القيم العربية التى تفضل الخطيب الوسيم الحسن المظهر.

والقيم العربية متسقة مع ما جاء فى التنزيل فى وصف طالوت: (إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم).

إن ما نادي به قدامة قيمة مستمدة من قياس منطقى يرفضها التنزيل ولا يقرها العرف والذوق العربى، وقد مدح الشعراء السادة باشتمالهم على الصفات النفسية والجسمية معا، فالخنساء قالت فى صخر:

طويل النجاد رفيع العما د كثير الرماد إذا ما شتا

فزاوجت بين الصفات النفسية، ومنها السيادة والكرم وبين جمال الخلقة المتمثل فى الوسامة.

وأخطر مافى هذا أن قدامة دعا الى الغلو وفضله. وقد رأيت أن (إصابة المقدار) مما اتفق عليه الشعراء والكتاب واتسق مع التنزيل. قال قدامة: «إنى رأيت الناس مختلفين فى مذهبين من مذاهب الشعر، وهما الغلو فى المعنى إذا شرع فيه، والاقتصار على الحد الأوسط.. فأقول إن الغلو عندى أفضل المذهبين.» وقد استجاد قدامة قول أبى نواس:

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التى لم تخلق

فقال: «وقد أحسن أبو نواس حين أتى بما ينبئ عن عظم الشيء الذي وصفه».

وما نحسب أحدا من البلاغيين سلم لقدامة بهذا الحكم، فلبيان عظم الشيء الذي يصفه الشاعر طرق عدة بديعة أوقع فى النفس من هذا الغلو الذاهب الى المحال، والموقع النفس فى الحرج، فالشاعر يخدعها ويسخر منها ويهول عليها بالمستحيل الحدوث أى إنه يكذب.

من الطرق المبينة عظم الشيء وهى أوقع فى النفس التشكك، وفائدته الدلالة على قرب الشبهين حتى لا يفرق بينهما ولا يميز أحدهما من الآخر كقول العرجى:

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا ليلاي منكن أم ليلى من البشر

وقول جرير :

فإنك لو رأيت عبيد تيم وتيما قلت : أيهم العبيد

وقول ابن ميادة :

فوالله ما أدري أيغلبنى الهوي إذا جد جد البين أم أنا غالبه؟

وقول ابن زهير :

وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء

إن قدامة حين دعا إلى الغلو وحبذه خالف التنزيل فى قوله تعالى: (لا تغلوا فى دينكم)(١٠٤) لقد أخذ د.مندور على قدامة انصرافه عن معالجة الشعر باعتباره وحدة. فليس فى بيت أبى نواس المتقدم شيء من روعة النظم أو ديباجة الشعر، بل هو بالنثر أشبه، وحكم قدامة لم يفطن لشيء من هذا.

٢ - أبو الحسن إسحاق بن إبراهيم بن وهب وكتابه (البرهان فى وجوه البيان):

نشر بعض هذا الكتاب بمصر فى طبعتيه الأولى ١٩٣٣، والثانية ١٩٣٩ باسم (نقد النثر) منسوبا إلى قدامة بن جعفر بتحقيق الأستاذ عبدالحميد العبادي وتقديم الدكتو طه حسين. وقد قام الأستاذ العبادى بترجمة بحث قيم للدكتور طه حسين عنوانه (البيان العربى من الجاحظ الى عبدالقاهر الجرجانى) أنصحك بالرجوع إليه وقد جعله كالمقدمة للكتاب.

وفى تقديم الدكتور طه حسين للكتاب تشكك فى نسبته إلى قدامة وفى عنوانه (نقد النثر) وقال: «..ولكن المطلع عليها (الرسالة) يري أنها لايمكن أن تكون له (قدامة)، بل هى فى الغالب لكاتب شيعى ظاهر التشيع قد صنف علوما متباعدة فى الفقه وعلوم الدين يشير إليها ويحيل عليها فى شىء من الطمأنينة.»(١٠٥)

تتابعت جهود الدارسين فى تحقيق اسم الكتاب والمؤلف.(١٠٦) وقد دعمها وأثبت صحتها ظهور نسخة خطية كاملة للكتاب تحمل اسم الكتاب الحقيقى (البرهان فى وجوه البيان) بمكتبة تشستربيتى بأرلندة. وعليها اعتمد محققاه ببغداد وقد نشراه سنة١٩٦٧ وهما الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثى. ثم محققه بمصر د.حفنى شرف ونشره سنة١٩٦٩. وعلى النشرة المصرية للكتاب نعتمد فى درسنا.

وقد أضاف د. شوقى ضيف إلى ما ذكره د. طه حسين عن مؤلف الكتاب أنه : متكلم كان معاصرا لقدامة، وكان يعيش فى أوائل القرن الرابع

الهجري إلى أواسطه، وكان شيعيا إماميا، يعلى من قدر المنطق كما فعل قدامة، وهو يوغل فى ذلك إيغالا شديدا حتى كأننا بإزاء مختصر دقيق للقياس الأرسطاليسى.(١٠٧)

والكتاب بالنسبة لدرسنا يمثل أصداء آراء الجاحظ البلاغية فى بيئة الكتاب فى القرن الرابع الهجري، فهو مكمل لاتجاه قدامة البلاغى الذي يعلى من قدر الثقافة الوافدة ويسودها على الثقافة الأصيلة، ويحكم مقاييس المنطق الأرسطى على البلاغة والنقد عند العرب. ويزيد من أهميته بالنسبة لدرسنا أن صاحبه أعلن أنه أنشأه على سبيل المعارضة لكتاب الجاحظ. قال: «أما بعد، فإنك كنت ذكرت لى وقوفك على كتاب الجاحظ الذي سماه كتاب البيان والتبيين، وأنك وجدته إنما ذكر فيه أخبارا منتخلة، وخطبا منتخبة، ولم يأت فيه بوظائف البيان، ولا أتى على أقسامه فى هذا اللسان، فكان عندما وقفت عليه غير مستحق لهذا الاسم الذي نسبه إليه.

وسألتنى أن اذكر لك جملا من أقسام البيان آتية على أكثر أصوله، محيطة بجماهير فصوله، يعرف بها المبتدى معانيه، ويستغنى بهذا الناظر فيه، وأن أختصر ذلك لئلا يطول الكتاب».(١٠٨) فهو قد عد كتاب الجاحظ كتاب رواية ليس له من الدرس البلاغى نصيب، وأنه بهذا (النقص) صار اسما مفرغا عن معناه! وقوله إن الكتاب كتاب رواية قول صحيح، وما بعد ذلك فتحامل منه على الجاحظ. وإن كان قال إن الدرس البلاغى مثبوت فى تضاعيفه يصعب الوقوف عليه والانتفاع به كما قال العسكري فى الصناعتين لصدقناه. ولكنه جحد فضل الجاحظ وانتقص من قدر كتابه. وعندنا حكم د.شوقى ضيف، قال: «..واضح أن المؤلف لم

يكتف بالأخذ عن كتابى الخطابة والشعر لأرسطو، فقد توسع فى الأخذ عن كتابيه (المنطق) و (الجدل) ومزج ذلك مزجا واسعا بعقيدته الشيعية، ومباحث المتكلمين ومسائل الفقهاء، وهو مزج بدا فيه الجفاف واضحا. وبدا كأن البيان العربى عند ابن وهب يريد أن يستعجم.. وقد اقترح بعض ألقاب جديدة (فى الوجوه البلاغية) ولكن لم يكتب لها الشيوع على ألسنة البلاغيين. ويظهر أن البلاغيين ضاقوا به ضيقا شديدا. وآية ذلك أننا لم نجد له أى ذكر فى كتاباتهم.. وليس من شك فى أن ذلك يرجع إلى أن ابن وهب أوغل فى الاستعارة من التفكير اليونانى، كما أوغل فى ضغط الكلام بحيث سرى فى الكتاب غير قليل من الغموض، بل من الصعوبة والاستغلاق، ومن أجل ذلك انصرف البلاغيون عنه، وأعرضوا عنه إعراضاً.»(١٠٩)

مبدأ الإنصاف عند المؤلفين فى الدرس البلاغى يتكرر الحديث عنه، وقد قلنا ونحن بصدد الحديث عن طعن ابن قتيبة فى الجاحظ إن الحسد داء لا ينجو منه العلماء.. وقلنا إن القيمة الأخلاقية الباقية هى التى أعلنها الجاحظ (فى الحق ما وسع الجميع). ونقول إن طعن المتأخر فى المتقدم اعتراف منه بهذه النقيصة (الحسد) فيكفى المتأخر أن يترك من كلام المتقدم ما لم يوافق عليه، وإذا وجد المتأخر فراغا فى موضوع لم يغطه المتقدم فليقم بملء ذلك الفراغ فهذا المسلك أصون من التجريح.

يشتمل كتاب البرهان لابن وهب على مقدمة وأربعة أبواب غير متساوية الطول، أعلن خطته فى المقدمة بقوله: «وقد ذكرت فى كتابى هذا جملا من أقسام البيان وفقرا من آداب حكماء أهل هذا اللسان،

لم نسبق المتقدمين إليها، ولكنى شرحت فى بعض قولى ما أجموه، واختصرت فى بعض ذلك ما أطالوه. وأوضحت فى كثير منه ما أوعروه، وجمعت فى مواضع منه ما فرقوه. ليخف بالاختصار حفظه، ويقرب بالجمع والإيضاح فهمه.(١١٠)

يعترف ابن وهب أنه لا يضيف جديدا على شواهد المتقدمين، ويعد بتناولها تناولا جديدا يحقق الغرض الذى رأى أن القدماء أخفقوا فى إبرازه. والواضح أن هدفه تعليمى أراد أن يكون كتابه سهل التناول عند ناشئة الكتاب.

ثم ذكر ابن وهب فى نهاية المقدمة وجوه البيان جملة فقال «البيان على أربعة أوجه، فمنه (١) بيان الأشياء بذواتها وإن لم تبن بلغاتها، ومنه (٢) البيان الذى يحصل فى القلب عند إعمال الفكر واللب، ومنه (٣) البيان بالكتاب الذى يبلغ من بعد وغاب»(١١١)

أما البيان الأول عنده فهو التفكر فى خلق الله وهو مسبوق بمبدأ المعتزلة فى الاعتبار وكسب المعرفة، وعليه بنى الجاحظ كتابه الحيوان وحدثنا عن المناظرة بين الديك والكلب التى شغل بها اثنان من كبار المعتزلة وشغلت جزءا من كتاب الحيوان وهى فى حقيقتها مناظرة بين الفكر العربى ورمزله بالكلب، والفكر الشعوبى ورمز له بالديك.

ومحل هذا الدرس باب الدلالة من علم البيان. وقد سماه الجاحظ احال التى تسمى نصبة، وهى الحال الدالة التى تقوم مقام اللفظ والاشارة والعقد والخط.

والبيان الثانى الذى يحصل فى القلب عند إعمال الفكر صوره الجاحظ فى استهلال باب البيان بقوله: «المعانى القائمة فى صدور الناس ..الحادثة عن فكرهم مستورة خفية» فما يدور فى ذهن الانسان ليس بيانا عند الجاحظ وعندنا (وإنما يحيى تلك المعانى ذكرهم لها وإخبارهم عنها)، فالفكرة لا تعد بيانا إلا عند ابن وهب. أما عند كل البلاغيين فالبيان هو أن تسكن الفكرة فى اللفظ ويعبر عنها صاحبها بلفظه أو بقلمه أو باشارته.

تقسيم البيان عند ابن وهب ليس له ما يبرره، وقد أخرج ابن وهب مما عده الجاحظ من أصناف الدلالات على المعانى الإشارة والعقد، وقدم وأخر، وأضاف الفكرة الحبيسة فى ذهن صاحبها التى وصفها الجاحظ بقوله: (موجودة فى معنى معدومة) وأن (حياتها فى ذكر صاحبها لها) فهى عند الجاحظ لا تعد بيانا الا حين تسكن إلى اللفظ.

وكيف لا يعد ابن وهب الإشارة بيانا وبها يتحقق التفاهم بين الفصحاء، ومن فقدوا القدرة على النطق. والإشارة بيان صامت تعارف الناس على دلالته فى مختلف البلدان فى كل العصور، فى السلم والحرب، وتزداد أهميته والحاجة إليه بتقدم الزمن والتحضر وهى فن رفيع معاصر يسمى فن التمثيل الإيمائى Pantomime.

ولماذا يقدم الاعتبار على اللفظ وليس كل الناس قادرين على الاعتبار بنفس الدرجة. والقادرون عليه لا يقدمونه على اللفظ.

لقد أراد ابن وهب بهذا التقسيم أن يفلت من إسار فكر الجاحظ البلاغى الذى أعلنه فى باب البيان بكتابه البيان والتبيين، ولكنه لم يوفق إلى جديد يسلم له.

اتصال الجاحظ بالتراث اليونانى عامة والمنطق خاصة أمر لم ينفه الجاحظ وأخباره تدل على اتصاله بالمترجمين باستمرار فكان يعرف مضمون الكتاب اليونانى قبل أن يفرغ المترجم من إتمامه ودفعه إلى الوراقين، ولكنه يفهم اللغة من خلال منطقها الخاص بها، وهاك الدليل:

قال ابن وهب: «إن اختلاف الأسماء إذا اتفقت المعانى لا يوجب اختلافا فى المعانى كالنأى والبعد، كلاهما واقع على معنى واحد.[١١٢] وموجز رأى الجاحظ فى قضية الترادف أن لا ترادف فى استعمال القرآن للجوع [١١٣] والسغب.[١١٤] فالأول فى معنى العقاب والثانى فى معنى خواء المعدة وكلاهما نقص فى الرزق. وكذلك الأمر عند الجاحظ فى الغيث [١١٥] بمعنى النافع من ماء السماء، والمطر[١١٦] فى معنى العذاب وكلاهما ماء ينزل من السماء وقد رتب الجاحظ على هذا الفكر البالغى رأيه فى نفى الترادف داخل العمل الأدبى ونظريته فى النظم.

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم فى النأى والبعد -وهما شاهدا ابن وهب- فسنجد أن البعد ورد بمعنى طول المسافة فى قوله تعالى: (ولكن بعدت بهم الشقة)[١١٧] وأن النأى ورد بمعنى التجفى، قال سبحانه وتعالى: (وإذ أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه) ولم يلتفت ابن وهب إلى هذه الفروق الدقيقة لأنه مشغول بالمنطق عن الاعجاز القرآنى!

إن المقارنة بين الرجلين مفيدة أن منهج الجاحظ عربى لغوى يستفيد من المنطق اليونانى حين تدعو الحاجة إليه، ولكنه لا يحتكم إليه فى فهم

العربية. ومنهج ابن وهب منطقى يفرض أقيسة وتعميمات على اللغة من خارجها، وهذا يؤكد ما عبر عنه د. شوقى ضيف بأن البيان العربى عند ابن وهب يريد أن يستعجم، وهو فى هذا متأثر بقدامة بن جعفر.

لقد خالف ابن وهب ما أعلنه من مبادئ حين اتصل الأمر بمذهبه الشيعى الإمامى، قال: «إذا أتت أخبار الثقات بالشىء وضده، ولم يكن فى نقلة المخبرين من يتهم بقلة ضبط ولا وهم، ولم يكن الخلاف فى ذلك من جنس ما قدمنا، إلا أنه من رواية الشيعة عن الأئمة - عليهم السلام - فقد أعلم أنهم - صلوات الله عليهم - لا يأمرون بالشىء وضده لأنهم حكماء، والمناقضة عن الحكماء منفية، احتاط العالم بأن سبب الخلاف فى ذلك إنما هو خروج الجواب فى أحد الحالين على سبيل التقية...»[١١٨]

إن هذه الفقرة تدل على أن البلاغة عند ابن وهب لا تقوم على معايير ثابتة فهناك ظاهر قد يختلف عن الباطن، وهناك قول قد يتنافى مع الفعل، وهناك باطنيات قد تفسر القول أو الفعل وتبيح - تقية - ما يتنافى مع الشريعة. إن هذه البلاغة إمامية وليست بلاغة عربية، لهذه الأسباب نرفض أن نعدها بلاغة.

يتصل بهذه المدرسة بصورة أقل حدة كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى، ونرى أن يدرس فى سياق دراسة عبد القاهر الجرجانى فآراء عبدالقاهر كانت فى جملتها ردا على معاصره ابن سنان الخفاجى.

هوامش الفصل الخامس

هوامش الفصل الثانى من الباب الثانى

أطوار الدرس البلاغى واتجاهاته

(١) مابين القوسين للأستاذ إبراهيم مصطفى فى كتابه (إحياء النحو) ط ١٩٣٧ ص١٠-١١. وقد اعتمدنا على مجاز القرآن لأبى عبيدة معمر بن المثنى تحقيق د.محمد فؤاد سزجين.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ١/٧٥.

(٣) التلخيص : التبيين والتفسير.

(٤) المهمل يسمى أيضا المطلق، وهو الدال على الماهية بلاقيد، كالعدالة والحرية، ومثل (الناس) فى قوله تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى..) (الحجرات ١٣). أما المقيد فالذى يحدده السياق مثل (الناس) فى قوله تعالى: (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم..) آل عمران ١٧٣. فالذين نقلوا الخبر قلة والذين نقل إليهم الخبر المسلمون بالمدينة والذين نقل عنهم الخبر الكفار بمكة. وكلهم سماهم القرآن ناسا مع تفاوت أعدادهم فالمقيد هو المحدد بالسياق.

(٥) العقد : ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين يقال له حساب اليد. وقد ورد فى الحديث أنه (عقد عقد تسعين) عن تحقيق وشرح العلامة عبد السلام هارون نصوص كتاب البيان والتبيين.

(٦) البقرة آية ١١٨.

(٧) النحل آية ٦٤.

(٨) إبراهيم آية ٤.

(٩) البقرة الآيات ٨٧، ٩٣، ٩٩.

(١٠) آل عمران آية ١٣٨.

(١١) القيامة آية ١٩.

(١٢) لسان العرب ب ى ن.

(١٣) البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ١/١٣٥-١٤٠.

(١٤) الحيوان للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ٦/٩٠.

(١٥) آراء الجاحظ البلاغية وتأثيرها فى البلاغيين العرب حتى القرن الخامس الهجرى د.أحمد فشل ط الهيئة المصرية للكتاب فرع الاسكندرية ص٧٩ ومابعدها.

(١٦) نفسه ص ١٢٩ ومابعدها.

(١٧) نفسه ص ١٧٥ ومابعدها.

(١٨) نفسه ص ١٨٥ ومابعدها.

(١٩) نفسه ص ٣٧٨ ومابعدها.

(٢٠) البيان والتبيين للجاحظ ١/١٤٤.

(٢١) نفسه ١/٢٤٨.

(٢٢) قانون البلاغة فى نقد النثر والشعر لأبى طاهر محمد بن حيدر. تحقيق الدكتور محسن غياض عجيل ط مؤسسة الرسالة. بيروت ١٩٨١. والأردستانى صاحب (لمع الصناعة) وهو مفقود - وقد تفرد أبو طاهر البغدادى (ت ٥١٧هـ) بذكر هذا النص النادر من نصوصه.

(٢٣) البيان والتبيين للجاحظ ١/٢٦٨.

(٢٤) نفسه ١/٢٠٧ وقد أفدنا من تحقيق العلامة عبد السلام هارون رحمه الله.

(٢٥) نفس المصدر والصفحة.

(٢٦) نفسه ١/١٠٦.

(٢٧) نفسه ١/١١١.

(٢٨) البلاغة تطور وتاريخ د.شوقى ضيف ص ٥٤.

(٢٩) البيان والتبيين للجاحظ ١/٢٢٦ - ٢٣٠، وانظر أيضا ١/١٩٠ - ٢١٧، ١/٢٢٢ - ٢٢٥.

(٣٠) نفسه ١/٢٢٦.

(٣١) البصائر والذخائر لأبى حيان التوحيدى تحقيق د.إبراهيم الكيلانى - دمشق ١٩٦٤ المجلد الأول ص ٣٦٤ - ٣٦٧.

(٣٢) النسء : تأخير الوقت. نسئت المرأة: تأخر وقت حيضها، نسأ الله فى أجلك. ونسأالله أجلك، دعاء، لازم ومتعد. والنسيئة: بيع الشىء بالتأخير. والنسىء: الذى كانت العرب تفعله فى الجاهلية وهو تأخير بعض الأشهر الحرم إلى شهر آخر.

والنسأة : من كانوا يقومون بالتأخير من كبرائهم. وقد نهى الله عن ذلك، قال تعالى ﴿إنما النسىء زيادة فى الكفر﴾ التوبة٣٧.

(٣٣) هو على بن محمد بن العباس، أبو حيان التوحيدى الأديب المعتزلى الذى أخذ العلوم والآداب عن شيوخ بغداد والبصرة. ذهب الدكتور الكيلانى إلى أنه عاش بين سنتى ٣١٠، ٤١٤هـ. من

أهم مؤلفاته: البصائر والذخائر، والمقابسات. قال عن الجاحظ: «لاتنكروا روايتى لكلامه فإن لى فيه شفاء وبه تأدبا».

وهذا النص يشهد لأبى حيان بالقدرة على الهضم لما يقرأ، وحسن العرض لما يرى. وقد ربط بين إشارات متباعدة فى كتب الجاحظ، وهذا مانعده من فضل أبى حيان.

(٣٤) المقدمة - عبد الرحمن بن خلدون ط التقدم ١٣٢٢هـ ص ٤٥٩ ومابعدها.

(٣٥) نقد الشعر - قدامة بن جعفر ط الجوائب بالآستانة ١٣٠٢هـ ص٤.

(٣٦) البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٣٢٠.

(٣٧) تاريخ النقد الأدبى عند العرب - الدكتور إحسان عباس ط دار الثقافة - بيروت ص ٧٠ - ٧٢.

(٣٨) العقد الفريد لأبى عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبيارى ط ٢ ١٩٤٨ - لجنة التأليف والترجمة والنشر - التقديم صفحة ز.

(٣٩) ضحى الاسلام - أحمد أمين ط ٣ جـ١ ص٤١٦.

(٤٠) نفسه ١/ ٤١٢ - ٤١٤.

(٤١) الجاحظ حياته وآثاره الدكتور طه الحاجرى ط دار المعارف ١٩٦٢ فى صفحات مختلفة ٣٨١، ٤٢٣-٤٢٦.

(٤٢) الحيوان للجاحظ ٣/ ١٢٩.

(٤٣) انظر رسائل الجاحظ تحقيق حسن السندوبى ط ١٩٣٣ - من كتاب حجج النبوة ص١١٧.

(٤٤) البيان والتبيين للجاحظ ٢/١٥.

(٤٥) نفسه : ٤/٢٧.

(٤٦) نفس المصدر والصفحة.

(٤٧) العثمانية للجاحظ تحقيق العلامة عبد السلام هارون ط الخانجى ١٩٥٥ - التقديم ص١٠، قال: «لو لم يكن من قدر هذا الكتاب إلا أنك تقرأ من قلم الجاحظ ثمانين صفحة ومائتين لكفى ذلك فضلا له، فإن ماكتبه الجاحظ فى كتابيه (الحيوان) و(البيان والتبيين) يعد بالنسبة إلى النصوص، والنقول التى حشدها فى ذينك الكتابين شيئا ليس بالغالب، وأما العثمانية فهو صوغ كريم للجاحظ».

(٤٨) البخلاء للجاحظ تحقيق الدكتور طه الحاجرى ط دار المعارف بمصر ١٩٦٣ ص١٨ من المقدمة.

(٤٩) نفسه ص ٣٨١ ومابعدها.

(٥٠) هذا عنوان بحث اشتركنا به فى ندوة عاطف غيث العلمية الثانية وموضوعها (علم الاجتماع والسلطة فى العالم العربى) وكان فى الفترة من ٢٣-٢٥ فبراير ١٩٩٠ وقد نشر فى كتاب المؤتمر

(٥١) انظر ماذكره المؤرخون عن أحداث السنوات من ٢٥٥ إلى ٢٦٩ هجرية عامة والطبرى خاصة فى كتابه (تاريخ الرسل والملوك) ط دار المعارف ٩/٣٨٢ - ٦٥٢. وقد عف قلم الطبرى عن ذكر مقابح الخبيث. والأحداث تشكل ردة عن الاسلام. وللمستشرقين تفسير للأحداث يكشف موقفهم من الاسلام منهم لويس ماسينيون

وعلى أحمد سعيد والمشرف على رسالته الأب بولس نويا اليسوعى، والغريب أن بعض دارسى الأدب المعاصرين يوافقون أدونيس متآمرين أو يصمتون خائفين. والقضية فى وضعها الصحيح أن محركى الخبيث فى القرن الثالث الهجرى يعاودون حركتهم سرا هذه الأيام وهم وراء حوادث الإرهاب فى مصر والجزائر وفى بلاد أخرى لاتنشر أخبار الحوادث الإرهابية.

(٥٢) الجاحظ فى البصرة وبغداد وسامراء تأليف المستشرق الفرنسى شارل بلا وترجمة ابراهيم الكيلانى ط دار اليقظة بسوريا١٩٦١.

(٥٣) الأستاذ أحمد أمين مؤرخ العلوم العربية قد يقع فى هذا الخطأ عن غير قصد فهو غير متخصص التخصص الدقيق فى الأدب العربى. أما الدكتور شوقى ضيف فلا ندرى لماذا أخطأ ولماذا أصر على هذا الخطأ هذه السنين الطوال. لقد نبهه الأستاذ أمين الخولى حين ناقش رسالته للدكتوراه وكان عنوانها (الفن ومذاهبه فى الأدب العربى) أن الجاحظ راوية فى كتابه البيان والتبيين فلايجوز الحكم على أسلوب الجاحظ من خلال كتاب له فى الرواية، كما نبهه إلى أن الرسالة ينبغى أن تصدر فى كتابين، أحدهما فى الفن ومذاهبه فى الشعر العربى، وثانيهما فى الفن ومذاهبه فى النثر العربى. وقد استجاب الدكتور شوقى ضيف إلى التنبيه الثانى ولم يستجب إلى التنبيه الأول. والذى أعرفه أن الدكتور طه الحاجرى زميل دراسة وصديق للدكتور شوقى ضيف وكل مؤلفات الدكتور طه الحاجرى المتخصص فى درس الجاحظ تفصل بين كتب الجاحظ

فى الرواية وكتبه فى الخلق الفنى. فما تفسير إصرار الدكتور شوقى ضيف على ظلم الجاحظ وعلى السكوت عن الخطأ؟! ونحن نشهد إنه كثير الفضائل؟!.

(٥٤) مجلة الرسالة المجلد الأول ١٩٣٧ ص٦٢٠.

(٥٥) مناهج تجديد فى النحو والبلاغة والتفسير والأدب -أمين الخولى ط دار المعرفة بمصر١٩٦١.

(٥٦) باختصار من المقدمة التى كتبها ابن قتيبه لكتابه (عيون الأخبار) ط دار الكتب المصرية.

(٥٧) الكامل فى اللغة والأدب - أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ط التقدم ١٣٢٣هـ - المقدمة.

(٥٨) المصدر السابق ص٢ إلى ص٣.

(٥٩) نفسه ص٤.

(٦٠) نفسه ص٧.

(٦١) نفسه ص٩.

(٦٢) نفسه ص١٠، ١١.

(٦٣) نفسه ص١٤ ومابعدها.

(٦٤) الأمالى - أبو على إسماعيل بن القاسم القالى البغدادى ط٢ -السعادة بمصر١٩٥٣ - مقدمة المؤلف.

(٦٥) البديع - عبد الله بن المعتز تحقيق الدكتور محمد عبد المعم خفاجى. ط الحلبى ١٩٤٥ ص١٠٥، ١٠٦.

(٦٦) نفس المصدر ص١٠٦.

(٦٧) هو إيراد حجة للمطلوب على طريقة أهل المنطق، وهى أن تكون المقدمات مسلمة مستلزمة للمطلوب. وهذا النوع الثامن والعشرون من أنواع البديع عند أبى هلال العسكرى - راجع الصناعتين وقد نقلنا تعريف الدكتور عبد المنعم خفاجى محقق البديع لابن المعتز هامش (١) ص١٠١.

(٦٨) الأنبياء آية٢٢.

(٦٩) سورة يس الآيات من ٧٧ إلى ٨٠.

(٧٠) نشير إلى الجزء الثانى من كتابنا (آراء الجاحظ البلاغية..)

(٧١) البيان والتبيين للجاحظ ٤/٥٥.

(٧٢) نفسه ١/٥١.

(٧٣) أخذ الإمام عبد القاهر الجرجانى على القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى صاحب (الوساطة بين المتنبى وخصومه) وعلى أبى هلال العسكرى صاحب الصناعتين وغيرهما من أعلام المدرسة الأدبية التخليط بين حدى المجاز والاستعارة، والتخليط بين حدى البديع والمجاز. انظر أسرار البلاغة ص ٤٤١.

(٧٤) انظر البلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقى ضيف ص٩٢.

(٧٥) نفسه ص١٤٢.

(٧٦) نفسه ص ١٥١.

(٧٧) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبه ط الحلبى بدون تاريخ ص١٥-١٦.

(٧٨) نفسه ص٧٨.

(٧٩) العربية تأليف المستشرق الألمانى يوهان فك ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار. ط دار الكتاب العربى بمصر ١٩٥١ ص ١٣٢.

(٨٠) النساء آية ١٢٥.

(٨١) الخلة : الحاجة والفقر والخصاصة. وفى المثل (الخلة تدعو إى السلة) أى إلى السرقة. وأخل: اختاج - المحيط.

(٨٢) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص٨٤.

(٨٣) المصدر السابق والصفحة.

(٨٤) الحيوان للجاحظ ٦/١٢ - ١٤.

(٨٥) الحيوان للجاحظ ١/١٥٣ - ١٥٤. وقد قال أيضا فى سياق آخر: «ولم يهلك الناس كالتأويل». الحيوان ٦/٢٠٠.

(٨٦) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - الأستاذ مصطفى صادق الرافعى الطبعة الثامنة سنة ١٩٦٥ المكتبة التجارية بمصر ص١٧٠-١٧١.

(٨٧) مختارات عبيد الله بن حسان من رسائل الجاحظ المنشورة بهامش الكامل فى اللغة والأدب للمبرد ط التقدم بمصر ١٣٢٣هـ، ٢/١٢١-١٢٢. من كتابه فى حجج النبوة. ويبدأ الاختيار من هذا الكتاب من هامش الكامل ١/٢٧٥، ويمتد إلى الجزء الثانى. وفى النص المختار آراء للجاحظ كثيرة تصور مذهبه فى القول باعجاز القرآن فى نظمه.

(٨٨) قابل هذا الولاء الإيمانى بولاء المنافقين القائم على المعصية فى الآيتين ٦٦، ٦٧ من سورة التوبة.

(٨٩) ارجع إلى حوادث سنة ٢٣٧ هجرية فى تاريخ الرسل والملوك لمحمد بن جرير الطبرى ط دار المعارف بمصر ١٨٩/٩ حيث أمر أمير المؤمنين جعفر المتوكل بالتوكيل على ضياع أحمد بن أبى دواد. وحبس ابنه أبا الوليد فى ديوان الخراج، كما حبس إخوته وصادر أموالهم. وقد صور أبو العتاهية هذه الواقعة ورد فعلها ندى الرأى العام، فقال:

لَوْ كُنْتَ فِى الدِّينِ مَنْسُوبًا إِلَى رَشَدٍ ... وَكَانَ عَزْمُكَ عَزْمًا فِيهِ تَوْفِيقُ
لَكَانَ فِى الفِقْهِ شُغْلٌ لَوْ قَنَعْتَ بِهِ ... عَنْ أَنْ تَقُولَ : كَلَامُ اللَّهِ مَخْلُوقُ

(٩٠) كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى ط الخانجى بمصر ١٣٢٠هـ ص٢.

(٩١) النكت فى إعجاز القرآن للرمانى، منشورة ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن بتحقيق الأستاذين محمد زغلول سلام ومحمد خلف الله أحمد ط دار المعارف بمصر ص٢٣.

(٩٢) إعجاز القرآن لأبى بكر محمد بن الطيب الباقلانى تحقيق السيد أحمد صقر ط٤ – دار المعارف بمصر ص٣٥ ومابعدها.

(٩٣) التصريف : تصريف المعنى فى المعانى المختلفة كالتصريف مع العرض فى: الأعراض، والاعتراض، والاستعراض، والتعرض، والتعريض، والمعارضة، والعرض، والعروض. وكله منعقد بمعنى الظهور. وهذا الوجه البلاغى من فنون التجنيس.

(٩٤) تضمين الكلام هو حصول معنى فيه من غير ذكر له، بدلالة الإخبار، كذكرك الشيء أنه محدث، فيدل كلامك على المحدث دلالة الإخبار. وبدلالة القياس كذكرك (بسم الله الرحمن الرحيم) لاستفتاح أمر على التبرك به، والتعظيم لذكره.

(٩٥) الشبه، بالتحريك: النحاس الأصفر.

(٩٦) مقدمة بديع القرآن لابن أبى الإصبع المصرى. تحقيق د.حفنى شرف ط٢ -نهضة مصرص٣.

(٩٧) تقديم د.حفنى شرف لتحقيق كتاب بديع القرآن لابن أبى الإصبع المصرى.

(٩٨) تقديم د.حفنى شرف لتحقيق بديع القرآن لابن أبى الإصبع ص٣-١٥.

(٩٩) نفسه.

(١٠٠) انظر على سبيل المثال لا الحصر خزانة الأدب لابن حجة الحموى أبواب التزصيع والإغراق والمشاكلة.

(١٠١) انظر ماكتبه د.محمد مندور عن قدامة بن جعفر وكتابه (نقد الشعر) فى النقد المنهجى عند العرب ص٦٣.

(١٠٢) المرجع السابق ص٦٣-٦٤.

(١٠٣) يشير قدامة إلى نظرية الأوساط الأخلاقية الأرسطية أن الفضيلة وسط بين مذمومين، إفراط وتفريط. فالشجاعة فضيلة وسط بين رذيلتين هما الجبن والتهور. وكذلك الكرم وسط بين البخل والإسراف.

وقد رأيت أن (إصابة المقدار) لاتوافق الوسطية الأرسطية دائما، فالجهاد حين يكون فرض عين لايجوز فيه العدول إلى الحد الأوسط. وكذلك خطر الحريق وخطر الوبـــاء، وقديما قيل لمن أخذ ماله لنصرة الدعوة الاسلامية الوليدة: ماذا تركت لأولادك؟ فقال: تركت لهم الله ورسوله.

(١٠٤) قال تعالى: (قل يا أهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم غير الحق) النساء آية١٧١. وقال سبحانه: (قل يا أهل الكتب لاتغلوا فى دينكم غير الحق) المائدة٧٧. فالغلو فى الدين مذموم، والدين متصل بكل مظاهر الحياة ومعنى هذا إن الغلو مذموم فى كل مظاهره. والمأثور عن العرب قولهم (الجاهل إما مفرط أو مفرط) فقد قرنوا الغلو بالسفاهة والطيش والإلحاد.

لقد رأيت فى حديثنا عن إصابة المقدار تحبيذ الذوق العربى للإصابة فى المطعم والمشرب والملبس وزينة الرجل وزينة المرأة، والمحادثة والمكاتبة والمناظرة والبديع.

(١٠٥) (نقد النثر) المنسوب لقدامة بن جعفر ط لجنة التأليف والترجمة بمصر ١٩٣٨ ص١٩ من بحث الدكتور طه حسين بعنوان (البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر الجرجانى).

(١٠٦) انظر الدراسة القيمة للدكتور شوقى ضيف فى كتابه (البلاغة تطور وتاريخ) ص٩٣ ومابعدها. وانظر ما أوجزه الدكتور حفنى شرف من جهود الدكتور على حسن عبـد القادر والدكتور محمـد

عبد المنعم خفاجى والدكتور بدوى طبانة وغيرهم فى التقديم لكتاب (البرهان فى وجوه البيان) لابن وهب ط الرسالة بمصر ١٩٦٩ ص١٨ ومابعدها.

(١٠٧) البلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقى ضيف ص٩٦ إلى ٩٩. وقد حاول الدكتور حفنى شرف أن ينفى ذلك عن ابن وهب ص٤٠ من تحقيقه كتاب البرهان فى وجوه البيان لابن وهب. ولانجد د.حفنى شرف قد وفق إلى ماحاوله فأدلة د.شوقى ضيف تقيم الدليل القاطع على إمامية ابن وهب. وانظر النص الذى نستشهد به من كتاب ابن وهب حين برر التناقض بالتقية.

(١٠٨) البرهان فى وجوه البيان لابن وهب تحقيق د.حفنى شرف ص٤٩.

(١٠٩) البلاغة تطور وتاريخ د.شوقى ضيف ص١٠١-١٠٢.

(١١٠) البرهان فى وجوه البيان لابن وهب تحقيق د.حفنى شرف ص٥١.

(١١١) نفسه ص٥٦.

(١١٢) نفسه ص٦٨.

(١١٣) سورة البقرة آية ١٥٥.

(١١٤) سورة البلد آية ١٤، ١٥.

(١١٥) سورة يوسف آية ٤٩، والشورى آية ٢٨.

(١١٦) الفرقان ٤٠، والأعراف ٨٤، وهود ٨٢، والشعراء ١٧٣، والنمل٥٨.

(١١٧) التوبة ٤٢، والزخرف ٣٨.

(١١٨) البرهان.. لابن وهب ص٩١.

أولا : أهم مصادر الدراسة:

١ - الاتقان فى علوم القرآن - جلال الدين السيوطى ط الثقافة، بيروت١٩٧٣.

٢ - إحياء النحو - إبراهيم مصطفى ط ١٩٣٧ القاهرة

٣ - أسرار البلاغة - عبد القاهر الجرجانى ط الاستقامة - القاهرة بدون تاريخ.

٤ - أساس البلاغة - جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى ط الهيئة المصرية للكتاب١٩٨٥.

٥ - الأصمعيات - اختيار أبى سعيد عبد الملك بن قريب تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ط دار المعارف بمصر.

٦ - الأصنام - أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبى ط دار الكتب المصرية١٩٢٤.

٧ - إعجاز القرآن - أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى تحقيق السيد أحمد صقر ط٤ -دار المعارف بمصر.

٨ - الأمالى - أبو على إسماعيل بن القاسم القالى ط٢ السعادة بمصر١٩٥٣.

٩ - الإيمان - تقى الدين أحمد بن عبد السلام بن تيمية ط دار عمر بن الخطاب بالاسكندرية بدون تاريخ.

١٠ - البخلاء للجاحظ تحقيق د.طه الحاجرى ط دار المعارف بمصر١٩٦٣.

١١ - البديع لابن المعتز تحقيق د.محمد عبد المنعم خفاجى ط مصطفى الحلبى بمصر١٩٤٥.

١٢ - بديع القرآن لابن أبى الإصبع المصرى تحقيق د.حفنى شرف ط٢ نهضة مصر.

١٣ - البرصان والعرجان والعميان والحولان للجاحظ تحقيق د.محمد مرسى الخولى ط دار الاعتصام١٩٧٢.

١٤ - البرهان فى وجوه البيان لابن وهب تحقيق د.حفنى شرف ط الرسالة بمصر١٩٦٩.

١٥ - البصائر والذخائر لأبى حيان التوحيدى تحقيق د.ابراهيم الكيلانى ط دمشق١٩٦٤.

١٦ - البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ط مصطفى الحلبى بمصر١٩٤٥.

١٧ - تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ط كردستان العلمية القاهرة ١٣٢٦هـ.

١٨ - تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة تحقيق السيد أحمد صقر ط٢ الحلبى بدون تاريخ.

١٩ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ط السعادة بمصر١٩٣١.

٢٠ - تاريخ الرسل والملوك لمحمد بن جرير الطبرى ط دار المعارف بمصر.

٢١ - تحرير التحبير لابن أبى الإصبع المصرى تحقيق د.حفنى شرف - المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية١٣٨٣هـ.

٢٢ - تهافت الفلاسفة لأبى حامد الغزالى تحقيق د.سليمان دنيا ط٦ - دار المعارف بمصر ١٩٨٠.

٢٣ - ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن تحقيق محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام ط دار المعارف بمصر.

٢٤ - الحيوان للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ط١ - مصطفى الحلبى بمصر ١٩٣٨.

٢٥ - خزانة الأدب وغاية الأرب لتقى الدين أبى بكر بن حجه الحموى ط بولاق ١٢٩١هـ.

٢٦ - دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى تحقيق محمود محمد شاكر ط الخانجى بمصر ١٩٨٤.

٢٧ - ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى مكتبة القدسى القاهرة ١٩٥٢هـ.

٢٨ - رسائل الجاحظ تحقيق حسن السندوبى ط الرحمانية ١٩٣٣.

٢٩ - الرسالة للامام محمد بن إدريس الشافعى ط مصطفى محمد بمصر بدون تاريخ.

٣٠ - سر الفصاحة لأبى محمد عبد الله بن محمد بن سنان الخفاجى الحلبى ط الرحمانية ١٩٣٢.

٣١ - السيرة النبوية لابن هشام ط مصطفى البابى الحلبى بمصر ١٩٣٦.

٣٢ - كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى ط الخانجى بمصر ١٣٢٠هـ.

٣٣ - طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى ط دار المعارف بمصر ١٩٥٢.

٣٤- العثمانية للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ط الخانجى القاهرة١٩٥٥.

٣٥- العقد الفريد لابن عبد ربه تحقيق أحمد أمين وآخرين ط لجنة التأليف والترجمة والنشر١٩٤٨.

٣٦- العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده لأبى على الحسن بن رشيق القيروانى ط السعادة القاهرة١٩٥٥.

٣٧- عيون الأخبار لابن قتيبة ط دار الكتب المصرية١٩٢٤- ١٩٣٠.

٣٨- فتح البارى بشرح صحيح البخارى لأحمد بن على بن حجر العسقلانى ط السلفية بمصر بدون تاريخ.

٣٩- فن الشعر لأرسطاليس ترجمة وشرح د.عبد الرحمن بدوى ط النهضة المصرية١٩٥٣.

٤٠- قانون البلاغة فى نقد النثر والشعر لأبى طاهر محمد بن حيدر البغدادى تحقيق د.محسن غياض عجيل ط مؤسسة الرسالة - بيروت١٩٨١.

٤١- الكامل فى اللغة والأدب لمحمد بن يزيد المبرد ط التقدم بمصر١٣٢٣هـ.

٤٢- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل لأبى القاسم جارالله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى ط دار الفكر بدون تاريخ.

٤٣- لسان العرب لابن منظور. مصورة عن طبعة بولاق عن الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٤٤ - مجموع رسائل الجاحظ تحقيق باول كراوس ومحمد طه الحاجرى ط لجنة التأليف والترجمة والنشر١٩٤٣.

٤٥ - المختار من كتب الإمام أبى عثمان - اختيار عبيد الله بن حسان، نشر بهامش الكامل للمبرد ط التقدم بمصر١٣٢٣هـ.

٤٦ - المستطرف فى كل فن مستظرف لشهاب الدين محمد بن أحمد الابشيهى ط مكتبة الحياة بيروت١٩٨٨.

٤٨ - المعاد والمعاش (كتاب الآداب) ضمن رسائل الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ط الخانجى بمصر١٩٦٤.

٤٩ - معجم الأدباء لياقون الحموى ط دار المأمون القاهرة بدون تاريخ.

٥٠ - المفردات فى غريب القرآن لأبى القاسم الحسين بن محمد ط دار المعرفة بيروت بدون تاريخ.

٥١ - المفضليات للمفضل بن محمد بن يعلى الضبى تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ط دار المعارف بمصر.

٥٢ - مقالات الاسلاميين لأبى الحسن على بن اسماعيل الأشعرى تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد القاهرة١٩٥٠.

٥٣ - المقدمة لعبد الرحمن بن خلدون ط التقدم بمصر١٣٢٢هـ.

٥٤ - الملل والنحل للشهرستانى ط لندن.

٥٥ - منهاج البلغاء وسراج الأدباء لأبى الحسن حازم القرطاجنى تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة تونس١٩٦٦.

٥٦ - الموازنة بين الطائيين للآمدى تحقيق السيد صقر ط دار المعارف بمصر١٩٧٢.

٥٧ - الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء لأبى عبيد الله محمد بن عمران المرزبانى ط السلفية بمصر١٣٤٣هـ.

٥٨ - نقد الشعر لقدامة بن جعفر ط الجوائب١٣٠٢هـ.

٥٩ - نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر وبه مقال د.طه حسين (البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر الجرجانى) ط لجنة التأليف والترجمة والنشر١٩٣٨.

٦٠ - النكت فى إعجاز القرآن للرمانى، رسالة منشورة ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن تحقيق محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام ط دار المعارف بمصر.

٦١ - الوساطة بين المتنبى وخصومه لعلى بن عبد العزيز الجرجانى ط ٣ -عيسى الحلبى بمصر بدون تاريخ.

ثانيا : أهم المراجع الحديثة مؤلفة ومترجمة:

٦٢ - اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى د.محمد مدارء ط ١ - ١٩٨١.

٦٣ - الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر د.محمد محمد حسين ط ٦ -مؤسسة الرسالة بيروت.

٦٤ - آراء الجاحظ البلاغية وتأثيرها فى البلاغيين العرب حتى القرن الخامس الهجرى د.أحمد أحمد فشل - الهيئة المصرية العامة للكتاب بالاسكندرية١٩٧٩.

٦٥ - أصول الشعر العربى د.س.مرجوليوث نشره١٩٢٥ بمجلة الجمعية الملكية الآسيوية ترجمة د.يحى الجبورى ونشره فى كتيب ببغداد١٩٧٧.

٦٦ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعى ط٨- التجارية بمصر١٩٦٥.

٦٧ - براعة الاستهلال فى فواتح القصائد والسور د.محمد بدوى عبد الجليل ط١ -الهيئة المصرية العامة للكتاب١٩٨٠.

٦٨ - بلاغة أرسطو بين العرب واليونان د.ابراهيم سلامة ط٢ - الأنجلو بمصر١٩٥٢.

٦٩ - البلاغة والأسلوبية د.محمد عبد المطلب - الهيئة المصرية للكتاب١٩٨٤.

٧٠ - البلاغة تطور وتاريخ د.شوقى ضيف ط٤ دار المعارف بمصر١٩٧٧.

٧١ - البلاغة العربية فى دور نشأتها د.سيد نوفل ط مكتبة النهضة بمصر١٩٤٨.

٧٢ - البلاغة والنقد بين التاريخ والفن د.مصطفى الصاوى الجوينى ط الهيئة المصرية العامة للكتاب١٩٧٥.

٧٣ - تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية حفنى ناصف محاضرات السنة الدراسية١٩٠٩/١٩١٠ بالجامعة المصرية ط٢مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٨.

٧٤ - تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية -كارلونالينو- نشر بمعرفة مريم نالينو ط دار المعارف بمصر ١٩٥٤.

٧٥ - تاريخ النقد الأدبى عند العرب للأستاذ طه أحمد إبراهيم ط لجنة التأليف والترجمة ١٩٣٧.

٧٦ - تاريخ النقد الأدبى عند العرب د.إحسان عباس ط٤ دار الثقافة بيروت-١٩٨٣.

٧٧ - تراجم مصرية وغربية د.محمد حسين هيكل دار المعارف بمصر ١٩٨٠.

٧٨ - التعادلية مع الإسلام والتعادلية توفيق الحكيم دار المعارف بمصر ١٩٨٠.

٧٩ - ثورة الأدب د.محمد حسين هيكل ط السياسة بمصر ١٩٣٣.

٨٠ - الجاحظ فى البصرة وبغداد وسامراء تأليف المستشرق الفرنسى شارل بلا ترجمة د.إبراهيم الكيلانى ط دار اليقظة دمشق ١٩٦١.

٨١ - الجاحظ حياته وآثاره د.طه الحاجرى ط دار المعارف بمصر ١٩٦١.

٨٢ - حياة محمد د.محمد حسين هيكل ط ١٥دار المعارف بمصر.

٨٣ - خصام ونقد د.طه حسين ط بيروت ١٩٥٥.

٨٤ - رسائل البلغاء للأستاذ محمد كرد على ط الحلبى بمصر ١٩١٣.

٨٥ - ضحى الإسلام - أحمد أمين ط ٤ لجنة التأليف والترجمة والنشر.

٨٦ - العربية يوهان فك ترجمة د.عبد الحليم النجار دار الكتاب العربى القاهرة ١٩٥١.

٨٧- عصر الأيديولوجيا هنرى أيكن ترجمة محى الدين صبحى ط ١- دار الطليعة بيروت١٩٧١.

٨٨- العصر الجاهلى د.شوقى ضيف ط ١١ - دار المعارف بمصر.

٨٩- العقل والمعايير أندريه لالند ترجمة د.نظمى لوقا - الهيئة المصرية العامة للكتاب١٩٧٩.

٩٠- علم البديع رؤية جديدة د.أحمد أحمد فشل ط دار اليقظة العربية بالاسكندرية١٩٩٠.

٩١- علم النفس الفردى أصوله وتطبيقاته د.إسحاق رمزى ط دار المعارف بمصر١٩٤٦.

٩٢- فصول فى الأدب والنقد د.طه حسين ط دار المعارف بمصر١٩٤٥.

٩٣- فن الأدب توفيق الحكيم ط النموذجية بمصر١٩٥٠.

٩٤- فن القول أمين الخولى ط دار الفكر العربى بمصر١٩٤٧.

٩٥- الفن ومذاهبه فى النثر العربى د.شوقى ضيف ط٣ - دار المعارف بمصر.

٩٦- فى الأدب الجاهلى د.طه حسين ط٤-دار المعارف بمصر.

٩٧- فى تاريخ النقد والمذاهب الأدبية د.طه الحاجرى ط رويال بالاسكندرية١٩٥٣.

٩٨- فى النقد التطبيقى والمقارن د.محمد غنيمى هلال ط نهضة مصر بدون تاريخ.

٩٩- قالبنا المسرحى توفيق الحكيم ط النموذجية بالقاهرة١٩٨١.

١٠٠- قراءة ثانية لشعرنا القديم د.مصطفى ناصف ط٢-دار الأندلس بيروت١٩٨١.

١٠١- قضايا النقد الأدبى بين القديم والحديث د.محمد زكى العشماوى ط دار المعرفة الجامعية بالاسكندرية١٩٩٠.

١٠٢- قواعد النقد الأدبى لاسل آبر كرمبى ترجمة د.محمد عوض محمد ط لجنة التأليف والترجمة والنشر١٩٥٤.

١٠٣- المتنبى رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا محمود محمد شاكر ط الخانجى بمصر والمدنى بجدة١٩٨٧.

١٠٤- المجاز وأثره فى الدرس اللغوى د.محمد بدرى عبد الجليل ط دار الجامعات المصرية١٩٧٥.

١٠٥- محاضرات فى الفلسفة أندريه لالند ترجمة أحمد حسن الزيات ويوسف كرم ط الأميرية١٩٢٩.

١٠٦- المرايا المتجاورة دراسة فى نقد د.طه حسين للدكتور جبر عصفور - الهيئة المصرية للكتاب١٩٨٣.

١٠٧- المستشرقون د.نجيب العقيقى ط٤- دار المعارف بمصر١٩٨٠.

١٠٨- مستقبل الثقافة فى مصر د.طه حسين ط دار المعارف بمصر١٩٣٨.

١٠٩- المصادر الكلاسيكية لمسرح توفيق الحكيم د.أحمد عثمان ط الهيئة المصرية العامة للكتاب١٩٧٨.

١١٠- مع المتنبى د.طه حسين ط دار المعارف بمصر١٩٣٧.

١١٢- مفهوم الشعر د.جابر عصفور ط دار الثقافة القاهرة١٩٧٨.

١١٣ - مقالات فى النقد الأدبى تأليف ماثيو آرنولد ترجمة على جمال الدين عزت ط الدار المصرية للتأليف والترجمة١٩٦٦.

١١٤ - مقالات فى النقد الأدبى مجموعة مقالات مترجمة عن الانجليزية قام باختيارها وترجمتها د.ابراهيم حمادة ط دار المعارف بمصر١٩٨٢.

١١٥ - مناهج تجديد فى النحو والبلاغة والتفسير والأدب أمين الخولى ط دار المعرفة - القاهرة ١٩٦٢.

١١٦ - من تاريخ الإلحاد فى الإسلام د.عبد الرحمن بدوى ط لجنة التأليف والترجمة والنشر١٩٤٥.

١١٧ - من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده - محمد خلف الله أحمد ط٢ - معهد البحوث والدارسات العربية١٩٧٠.

١١٨ - المواقف الأدبية د.محمد غنيمى هلال ط نهضة مصر١٩٧٣.

١١٩ - نحو بلاغة جديدة د.محمد عبد المنعم خفاجى ود.عبد العزيز شرف ط مكتبة غريب القاهرة١٩٧٧.

١٢٠ - النقد المنهجى عند العرب د.محمد مندور ط نهضة مصر بدون تاريخ.

ثالثا : الدوريات :

١٢١ - مجلة الرسالة أعداد مختلفة سنوات ١٩٣٠، ١٩٣٣، ١٩٣٧.

١٢٢ - مجلة السياسة الأسبوعية ٢ / ٤ / ١٩٣٨.

١٢٣ - دورية صدرت عن ندوة عاطف غيث العلمية الثانية ١٩٩١ بقسم الاجتماع بكلية الآداب جامعة الاسكندرية تشمل بحوثا حول موضوع (علم الاجتماع والسلطة فى العالم العربى) نشر بها بحث للمؤلف بعنوان: (دور الجاحظ فى نشر السلام الاجتماعى فى المجتمع العباسى فى القرن الثالث الهجرى).

رابعا : المراجع الأجنبية :

124 _ A Dictionary of modern critical terms, edited by Rogar Fowler.Criticism an essay by Allan Rodway.London1973by RoutLedge and kegan Paul.

125 _ How to Read A.PAGE, I.A.Richards. London1967 by RoutLedge Paperback.

126 _ Uses of Rhetoric, Jim W.Corder. Lippincott,1971 U.S.A.

مركز الدلتا للطباعة

٢٤ شارع الدلتا - اسبورتنج